عبد الحكيم الذنون

بدايات الحضارة





بدايـــات

الحضارة

عبد الحكيم الذنون

بدايــات الحضارة

♦ بدايات الحضارة.

- تأليف: عبد الحكيم الذنون.
- الطبعة الأولى: 2018.
- عدد النسخ: 1000 نسخة.
- الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-18-013-3

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين
للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5617071
فاكس: 00963 11 5613241
ص. ب: 30598
daraladdinsyria@gmail.com

دار مؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5627060
00963 11 5637060
فاكس: 00963 11 5632860
ص. ب: 259 جرمانا
[illegible]@gmail.com

وفـــاءً لذكرى
السيدة زويـــا ميخائيلينكو
لدورها الكبير في مسيرة دار علاء الدين



تصدير

تبدأ ألف باء التمدن الإنساني في بلاد العرب.. هذه الأرجاء الممتدة من جبال زاغروس والخليج العربي حتى المحيط الأطلسي، ومن جنوبي الأناضول حتى بحر العرب. بلاد مترامية الأطراف شهدت بزوغ أول فجر حضاري منذ عصور ما قبل التاريخ، لتستحيل إلى مواقع وصروح أزلية أمدت الحضارة الإنسانية بأسباب المدينة ومؤشرات التواصل الحضاري.

ومن خلال مسيرة أمة العرب عبر الزمن، نجد أنها عاشت تناغماً أحادياً لجملة حضارات انبثقت منها، لتشكل فيما بعد أعتى الإمبراطوريات في تاريخها القديم والوسيط. وقد تجلى ذلك بانبثاق الممالك السومرية والأكادية والمصرية والآشورية والكنعانية والإيبلائية والأوغاريتية والعمورية والآرامية، حتى قيام دولة العرب المسلمين.

لقد كان الأمر مسألة تواصل النور الحضاري الذي لا انقطاع فيه، حيث انبثق من بلاد الشرق العربي القديم، وتركز في عدة مواقع ليغدو استمراراً للقوة، استمراراً للفكر، استمراراً للاقتصاد. ومهما يكن من أمر فإن التغييرات التي حملتها العصور كانت طفيفة إلى حد أنها تبين لنا كم كان التاريخ في حكمته وكياسته وصبره البطيء متناقضاً مع سرعة الأفراد وجملة التحديات.

إن الزمان هو الصورة المتحركة للأزلية الثابتة. والوجود القومي العربي يمتد في أعماق الزمن المجسد على خريطة الوطن العربي، ليبرز الإشعاع والتواصل الحضاري والإنساني في أرجاء المعمورة. إن ممالك الشرق القديم لم يكن وجودها الحضاري مقتصراً على أرض محددة، بل امتدت لتحقق قيمة

التواصل الثقافي على أرض الإغريق وصقلية قبل أن تبلغ مضيق جبل طارق. ولأن فلسطين وبحر إيجة كانا مفتاحين استراتيجيين، كانت البحار المحيطة بالوطن العربي: المتوسط والأطلسي والأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي، أساسيات في تجسيد ذلك.

لقد تشكلت الحضارة عبر الحقب في مثلث يشمل البوسفور والنيل ودجلة والفرات. وإن شعوبها هي الشعوب المصرية والكنعانية والسورية والآشورية والبابلية التي تنتمي إلى أمة عربية واحدة. وقد برزت حركة واسعة النطاق على مختلف الأصعدة، وتدلنا على ذلك المكتشفات الأثرية. وكتب التاريخ القديم للعراق ومصر وفينيقيا واليونان، حيث إننا نجد صوراً شتى مملوءة بالهجرات والحروب، وتحركاً مستمراً كما هو معروف للقوافل، وللمعادن الثمينة، وللسفن، وللأفكار والمعتقدات، وللآلهة.. حيث إن هذه الأشياء تنتقل في حركات الناس الذين يدركون ما يجري في الوركاء وإيبلا ونينوى وأوغاريت وغزة والكرنك وقرطاجة، يجمعهم القدر المحتم كما حدث أو يحدث في عواصم الزمن الواحد الكبرى.

إن السبب المشار إليه أعلاه هو الذي يجعلنا لا نستطيع أن نكوّن دراسة تاريخية في صور ثابتة كاملة لهذا القطر أو ذاك، لأن الصورة الكاملة والثابتة إنما تكون في مضمون الحياة، وفي الأنماط السلوكية وطرائق التحرك التي يشهدها القطر كافة، أو ما تحمله إليه ذلك، لأن القيمة الأساسية بكل جوانبها ومؤشرات تواصلها تكمن في الأمة الواحدة بعيداً عن حالات التجزئة والتبعثر. وهكذا يتأكد لدينا تماماً أن الوجود القومي هو وجود أزلي منذ العصور القديمة، وقبل اكتشاف الكتابة وبدء التدوين. وهذا الوجود اتجه بمسارات تم الإفصاح من خلالها على ماهية الإنتاج الحضاري الذي تجلى بعدة صورة وآفاق ومؤشرات كتحصيل حاصل لنضج الحضارة العربية وقدرتها على التفاعل مع بقية الحضارات العالمية.

فجر الحضارة

تبدأ العصور الأولى التي وجد فيها الإنسان الأول في الوطن العربي، حيث عاش الإنسان الأول في وادي الرافدين ووادي النيل وفلسطين وسورية منذ حقب زمنية موغلة في القدم.

ومرحلة آثار ما قبل التاريخ في العراق القديم تبدأ منذ العصور القديمة الأولى التي وجد فيها الإنسان العراقي الأقدم في العراء وحتى نهاية العصر الحجري الحديث (نيوليت) في الألف الخامس قبل الميلاد، حيث إن مرحلة العصور الحجرية في وادي الرافدين تمتد منذ مليون سنة قبل الميلاد وحتى الألف الخامسة ق.م، حيث الدور الحجري النحاسي.

وبما أن الإنسان القديم بدأ يستقر فيما بعد في مستوطنات صغيرة تحولت إلى قرى في الدور الحجري الحديث، وتطورت بعضها إلى مدن محصنة في العصر الحجري النحاسي والعصور اللاحقة، اعتبرنا ثورة العصر الحجري التي قلبت أسس حياة المجتمعات البشرية، وأرست دعائم القاعدة المادية التي تطورت عنها الحضارة البشرية فيما بعد.

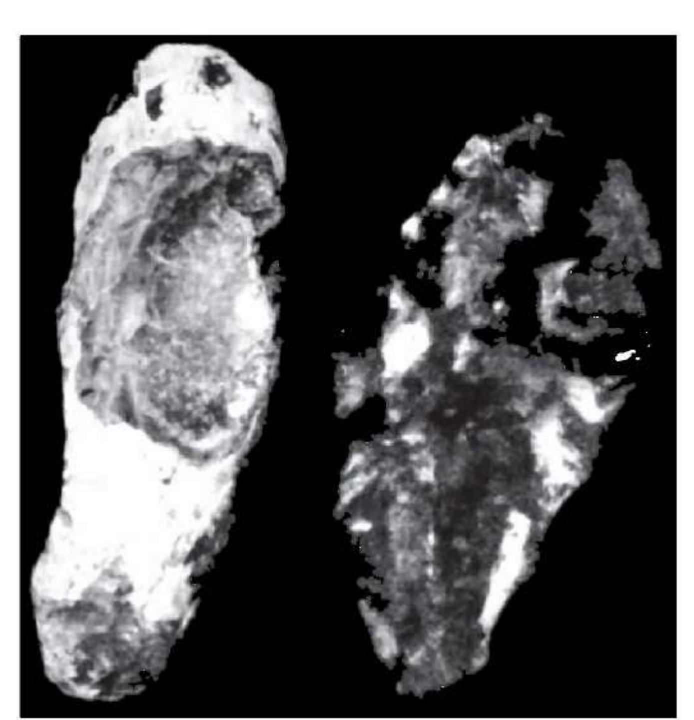
وإزاء ذلك يمكننا تسليط الضوء على فترات التاريخ القديم في وادي الرافدين، والتي تقسم إلى قسمين هما: عصور ما قبل التاريخ، والعصور التاريخية. ويكون الفاصل بينهما (عصر فجر التاريخ)، حيث تم اكتشاف الكتابة وسيلة لتدوين الأحداث التاريخية، وقد تم ذلك في الدور الذي يأتي بعد الدور الحجري وقبل الدور البرونزي الذي ظهرت فيه الكتابة لأول مرة في تاريخ البشرية في العراق القديم.

ويعتبر وادي الرافدين من أقدم مواقع العصور الحجرية وعصور ما قبل التاريخ في العالم، فقد عاش الإنسان القديم منذ دهور قديمة، ووجدت آثاره في الكهوف

والمغاور في الجبال الشمالية والشمالية الشرقية، وفي العراء على الهضبات الجبلية في الشرق، وعلى المرتفعات الصحراوية في الغرب.

وقد اتخذ الإنسان أكثر أدواته الضرورية من الحجارة، فقام علماء الآثار بتسمية ذلك الزمن بالعصر الحجري، وهو حقبة طويلة جداً؛ ثم بتقسيمها إلى أدوار مختلفة نسبة إلى نوع تشظية قطع الحجر وتهذيبها.

وعرفت هذه الأدوار بأسماء المواقع التي اكتشفت فيها أول مرة نماذج من تلك التقنيات، وأكثرها في فرنسا وجبال الألب وشمال أفريقيا والشرقيين الأقصى والأدنى.



كدرات من عصور ما قبل التاريخ العصر الحجري القديم (باليوتيك) تعود إلى (١٥٠٠٠٠-١٠٠٠٠٠ سنة ق.م)

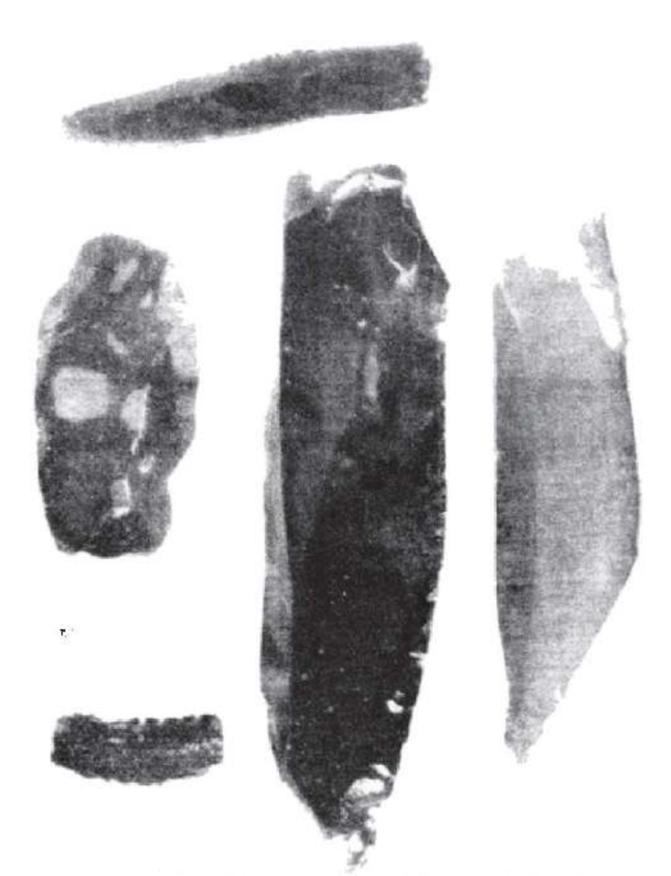
وكان الإنسان القديم يعتمد على قواه الذاتية في جمع قوته من الغابات والأحراش والحقول، ومن الصيد بأنواعه. واستعمل أدواته من لب الصوان بعد تشظية كدراته إلى فؤوس ومطارق للهجوم والدفاع. ثم اتخذ الشظايا فيما بعد أيضاً سكاكين ومقاشط، وقام بصقل أدواته الحجرية، ثم اتخذ العظام والأخشاب.

وفي العصر الحجري الحديث قبل نحو 100.000 سنة تعلم الإنسان القديم الزراعة، فكانت من أهم أسباب تقدمه وتواصله. ثم سكن البيوت وكانت في بادئ أمرها من الطين والحصران، ومنها تأسست القرى الأولى. ثم دجن الحيوان والماشية، وصار بذلك ينتج قوته بيده وأصبح ذا حياة اجتماعية وعقيدة دينية.

وفي العصر الحجري الحديث تتنوع الأدوات الحجرية تنوعاً هائلاً وبتقنية أكثر تقدماً، فقام الإنسان القديم بصنع الفأس الحجرية المنحوتة وربطها بمقضب

من الخشب، وصنع المعاذق للحراثة، والمقدمات والمجارش لطحن الحبوب، والمقاشط.

وقام باستعمال السكاكين من الزجاج الأسود، واستعمل أدوات من العظام: فصنع الإبر والمثاقب والملاعق والحلي. وصنع من الرخام الدلايات والأساور؛ ومن الطين دمى مختلفة تمثل الحيوانات التي دجنها، أو الآلهة الأم (إلهة الخصب والتكاثر) التي عبدها. واستعمل السهام والقسي بكثرة، وقد وجدت كميات كبيرة من الفخار في هذه الفترة.

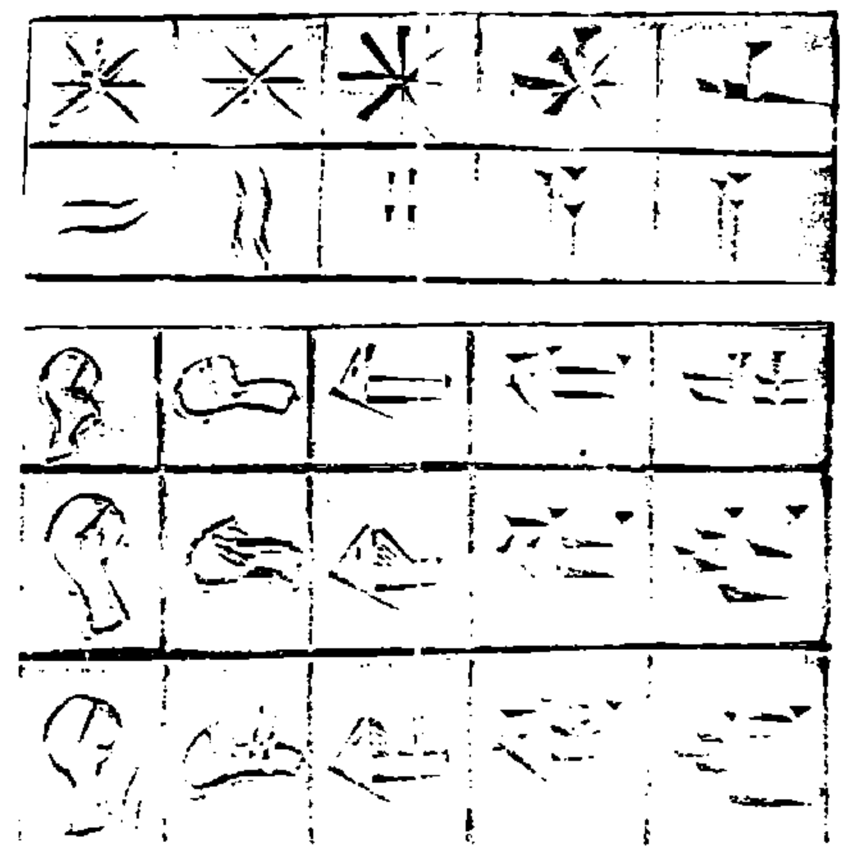


مقاشط وشظايا من عصور ما قبل التاريخ
العصر الحجري الحديث (نيوليت)

وفي مطلع الألف الخامس ق.م اهتدى الإنسان إلى اكتشاف المعادن، فقام باستخراجها من باطن الأرض، وصنع منها أدوات مختلفة استعملت إلى جانب الأدوات الحجرية. وقد عرف هذا الدور باسم: (الدور الحجري المعدني)، ولكن التنقيبات الأثرية الحديثة التي أجريت في تل الصوان في العراق وتل جتل هيوك في غربي تركيا أثبتت أن النحاس كان معروفاً بصورة بدائية منذ بداية الألف السادس ق.م.

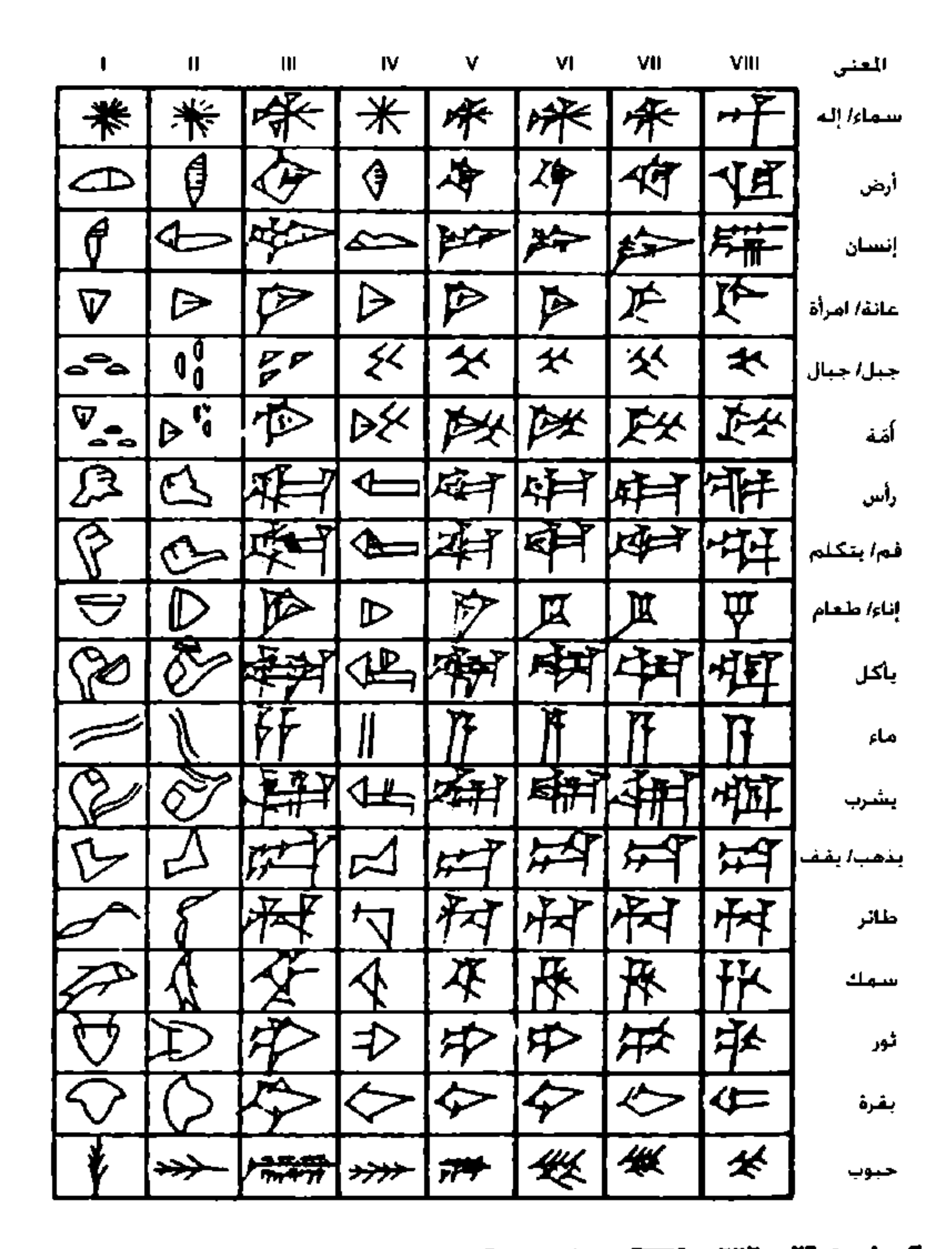
ومن أبرز أدوار هذا العصر: "دور حلف" و "دور أريدو" و "دور العبيد" و "دور الوركاء" و "دور جمدة نصر". وفي هذا العصر تطورت الزراعة تطوراً نوعياً، وتم تشييد المعابد والأبنية الفخمة، وتقدمت صناعة الفخار وتطورت تقنيته باختراع دولاب الفخار، حيث صنعت الأواني بكفاءة عالية وصبغ أكثرها بألوان قشيبة وبأشكال هندسية نباتية وحيوانية.

وفي دور العبيد استعملت المعادن، وكان النحاس يطرق بارداً في بادئ الأمر، إلا أنه سخن فيما بعد واستعملت طريقة الصب. والسباكة. وصنعت صنارات لصيد الأسماك، ودبابيس وسكاكين وأسلحة.



البدايات الأولى للكتابة السومرية في العراق

ويقدر زمن الوركاء بالفترة 3500-3100ق.م. واشتهر القسم القديم من دور الوركاء بكثرة فخاره؛ وامتاز القسم الحديث من دور الوركاء بنضج الحضارة وتقدم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية. ومن مقومات هذه الحضارة بوادر الكتابة نحو 3200ق.م. وقد كانت بأشكال تصويرية استعملت لتسجيل الواردات في المعابد وتدوين الأحداث التاريخية والأمور العامة. وانتشر فن النحت فنقشت ألواح من الحجر وتماثيل عديدة، وصنعت الأختام الأسطوانية. وكان فن العمارة راقياً، فقد زينت واجهات المعابد بنقوش مصبوغة، ورصعت بالفسيفساء المتكون من مسامير ملونة من الفخار أو الآجر.



تطور الكتابة في العراق القديم

من طور الكتابة الصورية Pictography (٣٣٠٠-٢٨٠٠ق.م)

إلى طور الكتابة المسمارية Cuneiform (٢٨٠٠ق.م-٧٥م)

ولقد عد بعض العلماء حضارة النصف الثاني من عصر الوركاء في سومر وبداية عصر جمدة نصر، وهو الدور الذي يلي دور الوركاء، حقبة حضارية لامعة أطلقوا عليها تسمية البرتولتريت أي مرحلة بدء الكتابة والآداب. وقد زودتنا هذه المرحلة بآثار فنية راقية ونقوش عديدة تدل على تقدم الحضارة في مختلف مجالاتها نحو 3200-3000ق.م

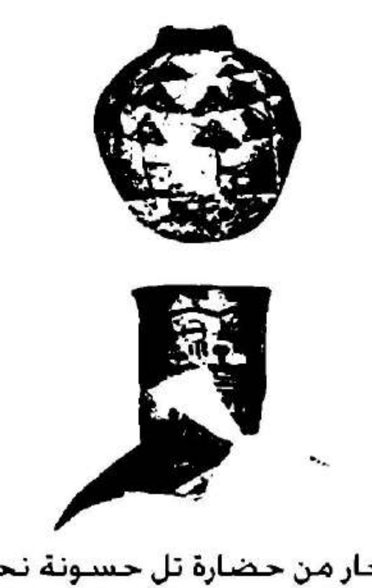
ويلي دور الوركاء دور حضاري سومري آخر، وهو دور جمدة نصر الذي يعتبر آخر أدوار عصور ما قبل التاريخ في العراق القديم. ومن أهم المميزات الحضارية لهذا الدور، تقدم فن الكتابة وتطورها من صور إلى رموز رسمت بخطوط مستقيمة، وصار للعلامات قيم صوتية ساعدت على التدوين بعض الشيء.

كما تقدمت الصناعات، وازداد استعمال الأختام بنوعيها المسطحة والأسطوانية، ونقشت أواني الحجر بأشكال حيوانية وطعمت بالصدف. كما إن صناعة المعادن أخذت في التقدم، فصنعت منها أنواع الأسلحة والأدوات المنزلية كافة، وتطور فن العمارة حيث توسعت المباني والمعابد توسعاً ملحوظاً، وزينت واجهاتها بالفسيفساء.

وبذلك فإن سومر تعتبر من المواقع المهمة التي شهدت أقدم حضارة معروفة في العالم القديم، وكانت مهد إرساء دعائم بدايات الحضارة البشرية نظراً لما أنتجته من قيم حضارية وإبداعية كانت بمثابة الأساس الذي ارتكزت علية مقومات التمدن البشري فيما بعد.

لقد وجدت حضارة زراعية في جنوبي وادي الرافدين منذ 5500ق.م، وتطورت خلال آلاف السنين، وتم اكتشاف الكتابة، وبذلك تم تدوين الأدب والملاحم والأحداث التاريخية والشؤون العامة. وقد تطورت القرى إلى مدن. وبعد انتهاء دور جمدة نصر تبدأ مرحلة العصور التاريخية، فيقوم السومريون بإرسال دعائم الكيان السياسي الأول من خلال صيغة (الدولة المدينة)؛ أي دويلات المدن في الألف الرابع قبل الميلاد، وهو الزمن الذي برزت فيه الحضارة واللغة السومريتين. وخلال ألف سنة تبعت تل العبيد واكتشاف الكتابة، ودور جمدة نصر، بدأ عصر فجر السلالات السومرية، ثم أتت فيما الأقوام العربية القديمة

من شبه جزيرة العرب وبادية الشام لتشكل إضفاءات حضارية للمنطقة وتبلورها منذ فجر التاريخ.

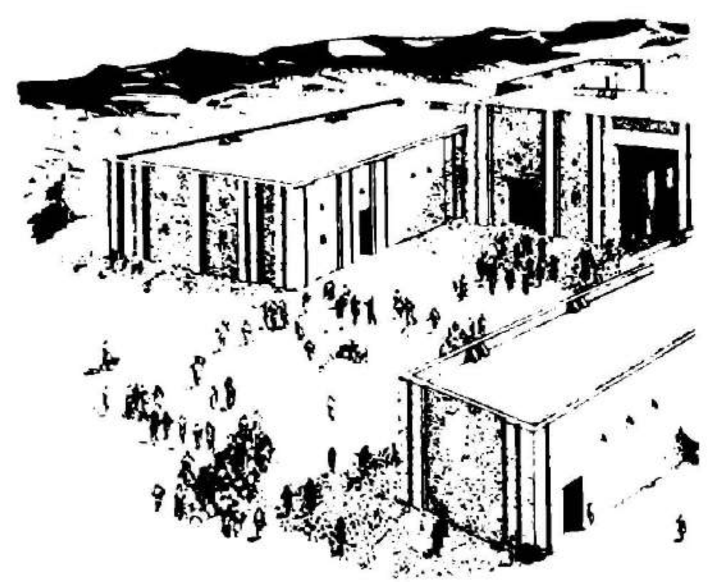


فخار من حضارة تل حسونة نحو ٥٥٠٠ سنة قبل الميلاد - الموصل

ويستدل من الدراسات اللغوية أن ثلاث مجموعات إثنوغرافية سكنت العراق القديم وهم: السومريون في أقصى الجنوب من نيبور وحتى الخليج العربي، والأقوام العربية القديمة (الأكاديون، الآشوريون، البابليون) في الشمال والوسط والجنوب، وفئة ثالثة ربما من نوع شعب "إيبلا". وفي تاريخ غير واضح اندمجت الفئات الثلاث في حضارة واحدة، ولكن لغتهم المشتركة المكتوبة قبل 2400ق.م كانت اللغة السومرية، ويسمي أصحاب هذه اللغة المشتركة بالسومريين.



ولما كتبت اللغات الثلاثاء فيما بعد بالمسمارية، أدرك بأنهم ثلاث فئات إثنوغرافية، لكن الفارق كان لغوياً فقط وليس سياسياً أو ثقافياً، بل امتازوا بالإبداع الحضاري نفسه وبالمعتقدات الدينية نفسها.



معابد قديمة من عصر العبيد في تبة كورة - الطبقة الثالثة عشرة - الموصل - العراق







أختام أسطوانية مع طبعاتها

من عصر جمدة نصر - العراق

مؤشرات حضارية

إن تاريخ وطننا العربي الكبير هو أول فصل من تاريخ الإنسانية، فقد أرسيت في منطقة الشرق الدعائم الحضارية التي مهدت لمسيرة لاحقة لتاريخ العالم، حيث استؤنفت في تلك الحقبة اكتشافات أثرية هائلة تعتبر تطوراً نوعياً ومهماً في ميدان الحضارة المادية.

لقد نشأت المدن والمراكز الحضرية والمجتمعات الطبقية الأولى، واكتشفت الكتابة في بلاد الرافدين في منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، وظهرت الآداب والعلوم والمعارف. وقد كان لحضارات الشرق القديم عامة وحضارات الوطن العربي القديم على وجه الخصوص بالغ الأثر في الحضارة اليونانية والرومانية. كما تعتبر حضارة الوطن العربي القديم تمهيداً لمسار انبثق من جذور واحدة لتتبلور فيما بعد الحضارة العربية الإسلامية التي أثرت بدورها في الحضارة العالمية في العصور الوسطى والحديثة. إن دراسة تاريخ الشرق القديم موغلة في القدم، وتصل إلى ألفي عام ونيف، حيث كان الإغريق يتطلعون باهتمام إلى جيرانهم الشرقيين. وقد تضمنت أعمال مؤرخي اليونان والرومان معلومات ناضجة وقيمة عن تاريخ وحضارة وديانات المصريين القدماء والآشوريين والبابليين والفرس والهنود، ولكن الدراسة العلمية الحديثة للآثار الحضارية العربية القديمة لم تبدأ في أوروبا بالطبع إلا في عصر النهضة والتنوير. وعلى مدى القرن التاسع عشر الميلادي كان علماء أوربا يعكفون على رموز الكتابات الشرقية القديمة الواحدة تلو الأخرى: الهيروغليفية والبابلية والحثية. وقد جرت في العراق ومصر فعاليات واسعة النطاق باتجاه التنقيب الأثري، وقد أسفر ذلك عن اكتشافات أثرية هائلة تؤكد عراقة بلاد العرب وعمق أصالتهم وتاريخهم الموغل في القدم وجذورهم الواحدة.

وفي القرن العشرين برزت إلى حيز الوجود دراسات ناجحة ومتطورة عن حضارة المشرق، لاسيما حضارة الوطن العربي القديم، حيث تطورت تقنيات الحفريات الأثرية، وتعزز مستوى الدراسة العملية النظرية، وتطورت وازدادت الأبحاث المكتبية والمؤرشفة، كما تم افتتاح مراكز تعنى بدراسة حضارات تاريخ العرب القديم: (سومر، ماري، أوغاريت، مصر القديمة، إيبلا)، واتسعت نطاقات الأماكن والمواقع الأثرية التي يجري التنقيب على مساحاتها.

لقد تبدلت الكثير من المفاهيم بفعل الاكتشافات الأثرية الحديثة عن مفهوم وجغرافية منطقة الشرق القديم، بل وتطورت مع مرور الزمن الحدود والفواصل الزمنية لمفهوم الشرق القديم. ولا يوجد حتى الآن اتفاق علمي عن الحد الأدنى لتاريخ الشرق القديم. وبمثابة خط فاصل تجري الإشارة إلى احتلال الاسكندر المقدوني لأقطار الشرق الأوسط في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وإلى بداية التبشير بالمسيحية وانتشارها في القرن الأول الميلادي، وأخيراً الفتوحات الإسلامية في القرنين السابع والثامن الميلادي. أما الحد الأدنى لهذا التاريخ فقد كان يعتبر سابقاً بحدود الألف الخامسة قبل الميلاد، أما الآن فإن الباحثين يخفضونه إلى الألف الثامن ق.م وحتى الألف العاشر ق.م.

وكما هو متعارف عليه يبدأ التاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة باختراع الكتابة وظهور النصوص الكتابية الصورية الأولى في تخوم الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، ويطلق على المراحل التي سبقت هذا الزمن مصطلح (عصور ما قبل التاريخ)، أي مراحل ما قبل تدوين الأحداث والوقائع التاريخية.

وكان عالم الآثار غوردون تشايلد قد أدخل في الأربعينيات والخمسينيات مصطلح "ثورة العصر الحجري" إشارة إلى التحول النوعي الذي طرأ على حياة المجتمعات البشرية في الآلاف 10-7ق.م. فبعد أن قام بتعميم نتائج العديد من الأبحاث الأثرية المتعلقة بآثار العصر الحجري الوسيط (ميزليت) والعصر الحجري الحديث (نيوليت) في هذا الوقت بالذات كانت تتم إعادة بناء جذرية حياة المجتمع الاقتصادية، ويجري التحول من الاقتصاد الاستهلاكي إلى الاقتصاد المنتج.

وعبر مراحل تطور حياة الإنسان على الأرض اقتصر الناس على ممارسة الصيد والتقاط وجمع الثمار، ثم صناعة بعض الأدوات المستخدمة كالفؤوس والسكاكين والمقاشط والمطارق بواسطة الحجارة الصوانية وتشطية الكدرات أولاً. وفي العصر الحجري المعدني تم صنع الأدوات من المعادن.

إن المنطقة العربية شهدت سلسلة طويلة من الحضارات الأثرية الرائعة خالية الكتابة، والتي سبقت عصر الآثار الكتابية الأولى في سومر، وارتبطت ارتباطاً وثيقاً مع الحضارات "التاريخية" اللاحقة، بحيث يصعب ويستحيل فصلها عن بعض.

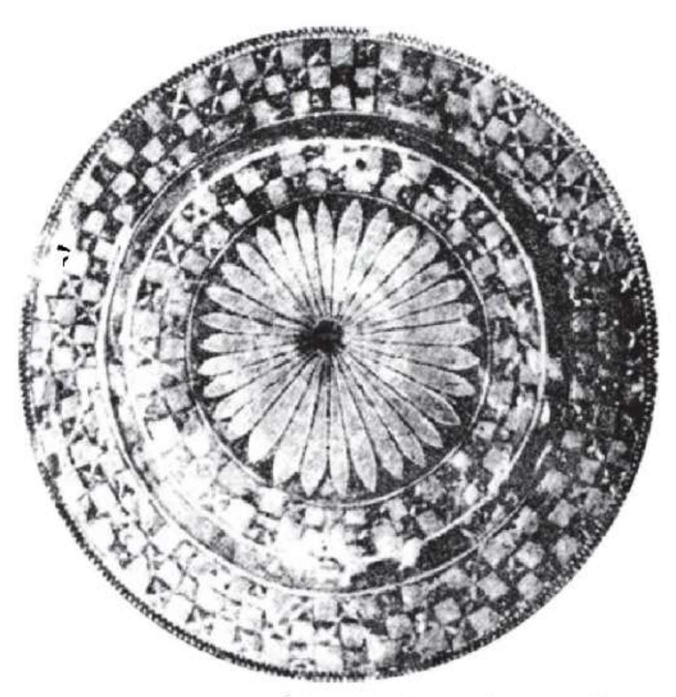
في مرحلة الألف الرابع قبل الميلاد، وقبل ذلك في الألفين الخامس والسادس ق.م، أرسيت دعائم حضارات الشرق القديم. وفي الوقت الراهن تتوسع وتزداد معلوماتنا بشكل متصاعد عن حياة المجتمعات القديمة في المنطقة بفضل تطور وسائل وتقنيات وطرائق الدراسات الأثرية واللغوية للتاريخ القديم، علاوة على كون الكتابة نفسها جاءت بعد مرحلة تمهيدية تاريخية طويلة تمتد بداياتها إلى الألفين الثامن والسابع قبل الميلاد. وقد اعتبر بعض العلماء السوفييت في أبحاثهم الأخيرة أن عرض أحداث تاريخ العرب القديم يبدأ منذ عهد ثورة العصر الحجري (نيوليت) في الآلاف 10-8ق.م.

أما الجماعات الزراعية والرعوية، فقد ظهرت منذ عشرة آلاف سنة فقط، وحدثت تغييرات واسعة النطاق، فقام المجتمع المدني، وظهرت دويلات المدن، ومن ثم الممالك والدول الكبرى، وحدثت تفاعلات حضارية كبرى على أنقاض النظام الاقتصادي القديم القائم على الصيد والجمع والالتقاط، حيث تحول الناس إلى زرّاع ومربي مواشي وبنائين.

إن انتقال الإنسان من حالة الصيد والعيش في الكهوف والمغاور إلى الاستقرار المدني والريفي فتح آفاقاً نوعية للتطور الاجتماعي، مما حدا بالحضارات القديمة أن تترعرع وتتكامل. ويأتي دور بعثات الاكتشاف والتنقيب الأثري لتقدم دراسة مستفيضة عن طريق تسليط الضوء على الفترات التي قطعها الإنسان والمراحل الحضارية التي أنجزها في رحلته في معترك الحياة.



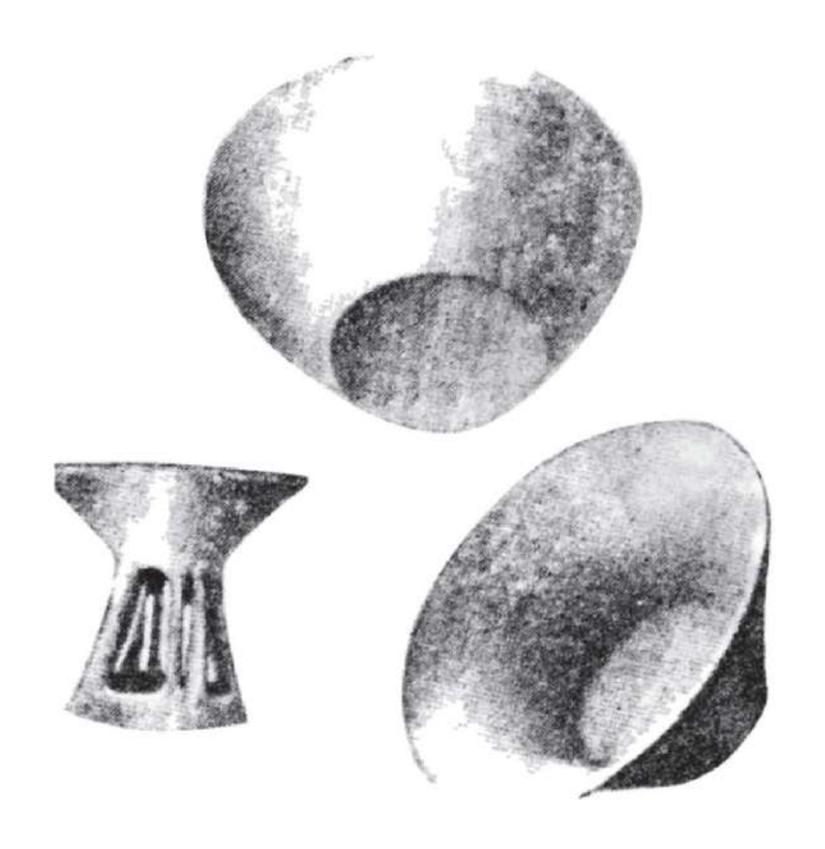
أقدم برج في العالم
برج حجري مستدير يقدر ارتفاعه بأكثر من
تسعة أمتار - أريحا فلسطين ٨٠٠٠ سنة ق.م



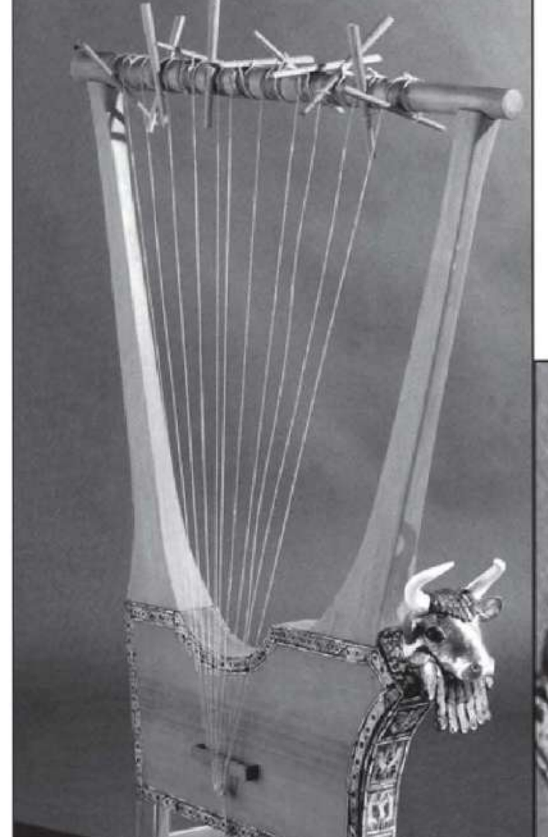
أنية من الحضارة الحلفية (الألف الخامسة ق.م)
تل الأربجية - الموصل



أوعية من الحضارة الحلفية الألف الخامسة ق.م
تل الأربجية - الموصل



أدوات بازلتية من الحضارة الغسولية (النصف
الثاني من الألف الرابع ق.م) أبو مطر - فلسطين



رأس من الذهب الخالص في
مقدمة آلة وترية موسيقية
(قيثارة أور) سومر

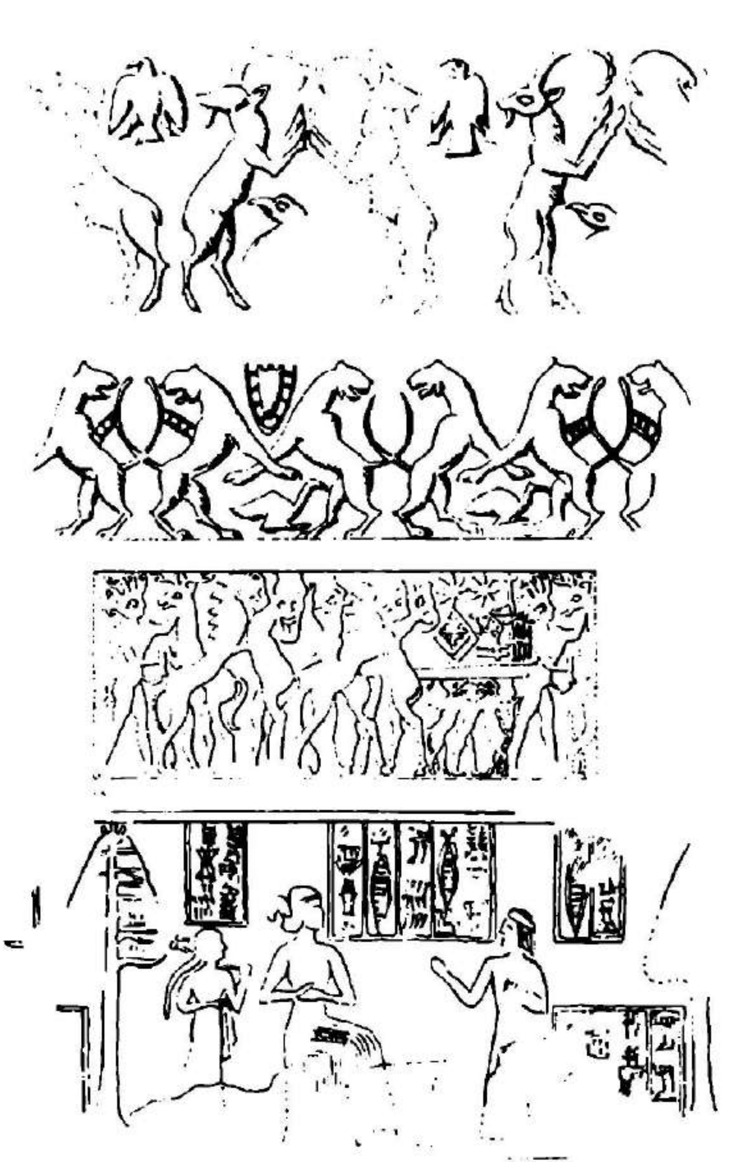




تمثال رأس امرأة من الوركاء ٢٨٠٠ق.م

مشهد صيد الأسود في الوركاء
نحو ٢٨٠٠ سنة ق.م جنوب العراق





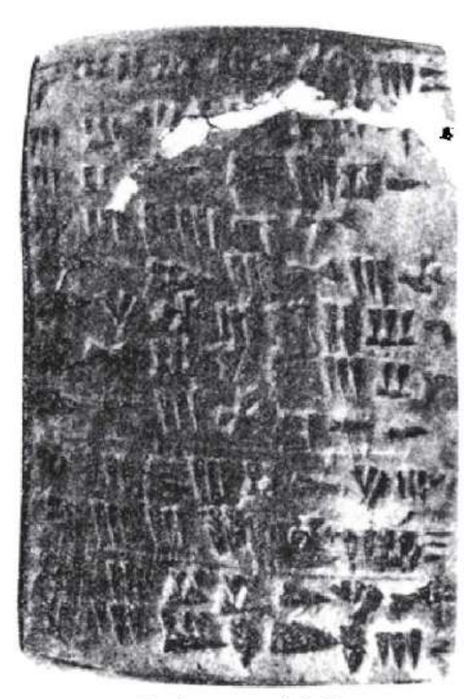
رسوم عن الأصل لطبعات أختام أسطوانية لحضارة الوركاء (أوروك)
الطبقات ٦-٤، وعصر أمدكور، وسوكورو، والعصر الأكادي - العراق

فقد قام علماء الآثار بتنفيذ جملة من المشاريع المتعلقة بحضارة العراق القديم في حوض نهر ديالى، وفي المدن القديمة كالوركاء ونيبور ونينوى واريدو وتل الصوان وتل حسونة ووادي سنجار وتل حرمل وأبو صلابيخ وتربيصو وبابل ونوزي ولكش وغيرها، حيث تم اكتشاف عدد كبير من الأوابد الضخمة التي تؤكد أصالة البلاد ونضج حضارتها.

وجرت تنقيبات آثارية في اليمن اتسمت بطابع شمولي، وعثر علماء الآثار على عدد من الخلويات تعود إلى العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث مع عدد هائل من النقوش واللوحات الكتابية والتماثيل والأدوات.

وفي سورية تواصلت أعمال التنقيب الأثري في أوغاريت (تل رأس شمرا) إحدى دويلات المدن الفينيقية، كما جرت أيضاً في ماري (تل الحرير) المطلة على نهر الفرات. كما يستمر العمل في نشر النصوص المسمارية الوفيرة التي تم العثور عليها في هاتين المدينتين، ومنذ عام 1963م يقوم البروفسور باولو ماتييه بتحرياته عند موقع إيبلا (تل مرديخ)، حيث أسفر التنقيب عن أرشيف ملكي ضخم جداً موجوداته مدونة بالخط المسماري تعود إلى الألف الثالث ق.م.

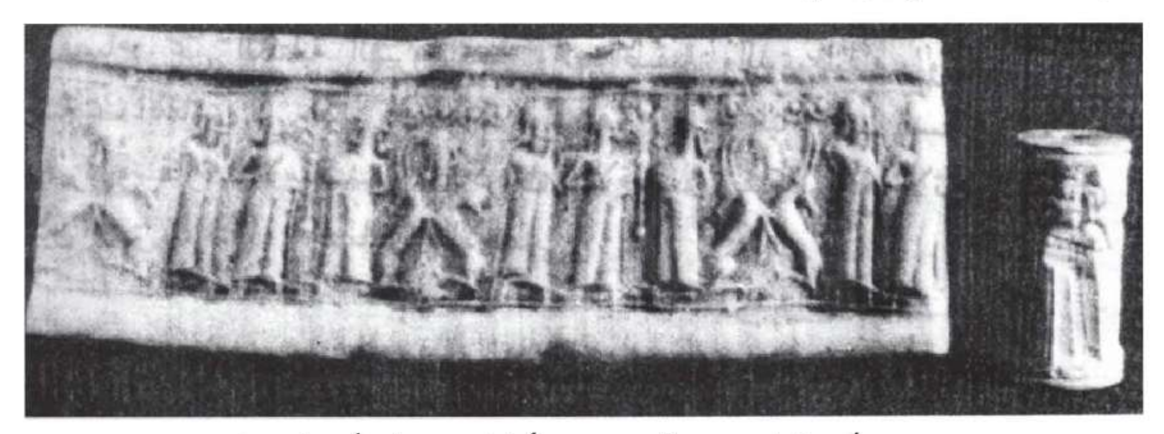
كما عملت في البحرين بعثات تنقيب عن آثار مدينة ديلمون التي كانت تشغل مكاناً خاصاً في التصورات الميثولوجية والتاريخية لسكان بلاد الرافدين القدماء، حيث أُثبت بأن البحرين ذات علاقة دينية وثيقة مع السومريين، ومحطة قوافل تجارية مهمة بين الجزيرة العربية وبين سومر وبابل، إضافة إلى تفاعل حضاري منفتح مع مالوه (حضارة حوض السند)، وماغان (ساحل جزيرة العرب).



كتابات مسمارية
من أوغاريت - تل رأس شمرا

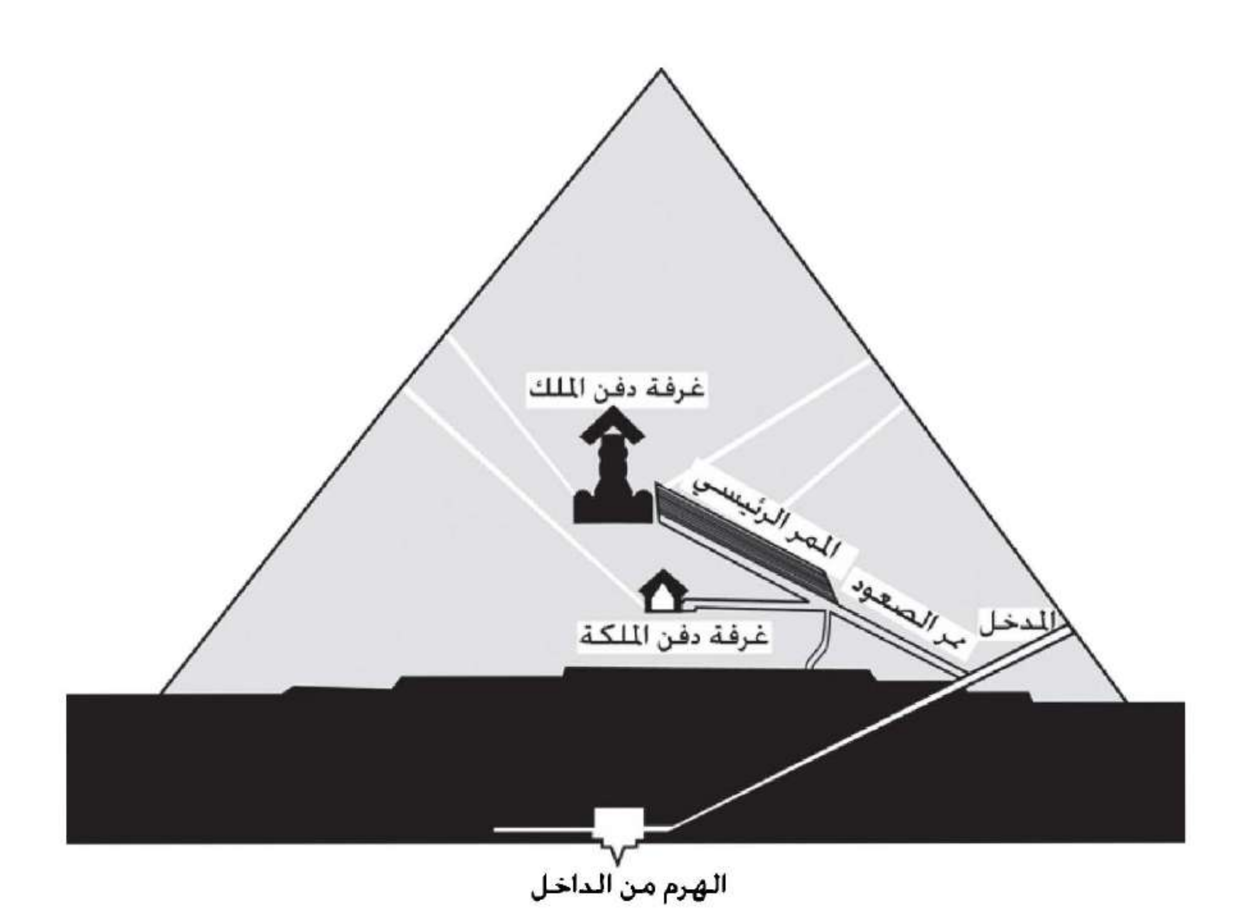
وقد بدأت عمليات التنقيب الأثري في وادي النيل قبل غزوة نابليون لمصر. وأثناء الغزو الفرنسي تم اكتشاف (حجر الرشيد) من قبل العلامة شامبليون، فتم الإفصاح عن الكتابة الهيروغليفية

والهيراطيقية والديموطيقية، ونشطت عمليات التنقيب الأثري في مصر وفي عدة مواقع في مصر العليا ومصر السفلى، ولا سيما في الجيزة وسقارة والإسكندرية والكرنك والأقصر، وبقية المواقع الأثرية الأخرى التي تبين عمق الانتماء الحضاري والإنساني.



ختم أسطواني مع طبعته من أوغاريت - تل رأس شمرا

حجر الرشيد - وتبدو في محاوره الثلاث الكتابات الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية



الهرم من الداخل

سومر.. الحضارة

أطلق اسم "سومر" قديماً على جنوب العراق، وعلى وجه التحديد أطلق على منطقة السهل الرسوبي المتكون بفعل ترسبات نهري دجلة والفرات، وقد تشكل هذا السهل الخصب من تراكم الطين المترسب من نهري دجلة والفرات عبر حقب جيمورفولوجية تقدر بآلاف السنين.

إن اسم سومر يعتبر من أقدم الأسماء التي أطلقت على جنوب وادي الرافدين، واسم "شومرد" كلمة أكادية تكتب المصطلح المسماري "كي ان جي"؛ أي بالبلاد السيدة. وقد سمته التوراة "سهل شنعار". وأطلقت عليه أقوام الجزيرة العربية "مات سوميريم". وتمتد أراضي السهل الرسوبي في بلاد الرافدين حالياً من جنوب بغداد وحتى الخليج العربي.

تعتبر سومر مهد الحضارة العراقية القديمة من حيث كونها أقدم المواقع المهمة التي شهدت أعرق حضارة معروفة في تاريخ البشرية. وهي مهد إرساء دعائم الحضارة العالمية نظراً لما أنتجته من قيم حضارته وإبداعية كانت بمثابة أساس ارتكزت عليه مقومات التقدم البشري. إن السومريين لم يكونوا أول الوافدين إلى وادي الرافدين، ولكن النظريات متعددة حول استنتاج بعض الأمور المتعلقة بنزوح السومريين: فيرى البعض أنهم قدموا في طور العبيد، ومنهم من يعدهم في طور جمدة نصر. ويؤكد الدكتور مورتكارت أنهم قدموا في زمن سوية الوركاء الرابعة. وبطبيعة الحال إننا ندرك أن السومريين ليسوا من أقوام الجزيرة العربية، ووجدوا في سومر قبل الألف الرابع قبل الميلاد، واخترعوا الكتابة نحو 3500ق.م، فكانت اللغة السومرية أقدم لغة مكتوبة. وقد وجدت حضارة زراعية في منطقة السهل الرسوبي، ولا سيما في الأرجاء الجنوبية منذ 5500 سنة ق.م، وتطورت خلال

آلاف السنين. ولا يمكن إعطاء هوية معينة لأصحابها قبل عهد الكتابة، ولكن تطور القرى إلى مدن، وإنشاء الدولة المدنية؛ أي دويلات المدن السومرية تعود إلى الألف الرابع ق.م، وهو الزمن الذي برزت فيه الحضارة واللغة السومريتين. وخلال ألف سنة تبع تل العبيد واكتشاف الكتابة مجيء الأكاديين والعموريين والآشوريين من شبه الجزيرة العربية وبادية الشام، لتشكل السمة الحضارية الإضافية وتبلورها منذ فجر التاريخ.



خوذة ذهبية عثر عليها في مقبرة أور الملكية ٢٥٠٠ سنة ق.م

يقسم فجر التاريخ السومري إلى ثلاثة عصور فرعية، وهي: عصر الوركاء (أورك) (الطبقة الرابعة)، وعصر جمدة نصر وهو عصر أورك (الطبقة الثالثة)، وعصر مسيليم ملك كيش (تل الأحمر). وعلى الرغم من صغر بلاد سومر البالغة 25 ألف كم^2، فقد قامت في بداية الألف الثالث ق.م دويلات سومرية متفرقة في مدن عديدة في جنوبي العراق، تحكم في كل منها سلالة مستقلة عن جارتها. وقد تطورت الكتابة في ذلك الحين وأصبحت ملائمة لتدوين الوقائع التاريخية، فقد أخذ ملوك السلالات يصفون حروبهم وإنجازاتهم ويسطرون ذلك على ألواح الطين والحجر، وبذلك انتقل الناس إلى عهد جديد سمي بالعصور التاريخية، لأن الكتابة باكتشافها وتطورها أصبحت وسيلة لتدوين التاريخ.

وسميت بداية هذه الفترة من الحكم في العراق بعصر دويلات المدن السومرية أو عصر فجر السلالات (Early dynastic period). ويمتد هذا العصر بين نهاية عصر جمدة نصر (2900ق.م) وبداية عهد الإمبراطورية الأكادية السرجونية (2350ق.م)،

وهو من أغنى أدوار العراق من الوجهة الثقافية والحضارية. وقد وجدت معالم هذه الحضارة في أشهر المدن القديمة، مثل: سبار (تل أبو حبة)، شوراباك (فاره)، كيش (تل الأحمر)، أوروك (الوركاء)، أور (المقير)، نيبور (نفر)، لجش (تللو)، أشنونة (تل أسمر)، ماري (تل الحريري).

لقد كانت هذه المدن عامرة بمبانيها ومعابدها وأسوارها، ويتراوح عدد سكانها بين 10-50 ألف نسمة. وكانت شوارعها متعرجة، وكان لكل منها مزارع كبيرة ترويها الجداول والترع. وأبرز معالم المدينة السومرية المعبد المبني على مصطبة عالية، والخاص بإله المدينة أو شفيعها الذي لا يحمي المدينة فحسب بل يملكها. والملك هو وكيل الإله على شعبه. وفي وسط المعبد برج عال وهو الزقورة، وفي القمة المركزية من المعبد تمثال الإله ومذبح وطاولة التقدمات، وحول الحرم مبني من الطوب والأعمدة والأبواب المزينة بالصور، والمزار في القمة مطلي بألوان مختلفة.

ومثلما ذكرنا آنفاً فقد تطورت الكتابة في هذا العهد، وأصبحت ملائمة لتدوين الأحداث التاريخية. وقد تطور الخط من طور الصور إلى طور العلامات والرموز، ثم صارت مقاطع ذات قيم صوتية ترسم بخطوط مستقيمة عند كتابتها على ألواح الطين أو حفرها في الحجر، تشبه المسامير شكلاً، ولذا سميت بالكتابة المسمارية. وبلغ عدد هذه العلامات نمواً وتطوراً ستمئة علامة بين رمز ومقطع، ثم تكونت الجملة الكاملة بإدخال الصيغة الفعلية فيها، فأمكن التدوين بها، وكتبت أعمال الملوك وأخبار حروبهم، ودونت الأساطير والتراتيل الدينية.



من تماثيل أشنونة - عصر فجر السلالات الثاني - ميزيليم - تل أسمر - ديالى - العراق

وبعد ذلك بنحو ألف سنة، أي في حدود (2000ق.م)، جمع الكتبة السومريون والبابليون ما وقع تحت أيديهم من تلك الكتابات، وما تناقلته الألسن من أخبار وأساطير وقصص، ودونوا ذلك بشكل ثبت بأسماء السلالات التي حكمت في عصر فجر السلالات السومرية، وذكروا الملوك وفق سنوات حكمهم.

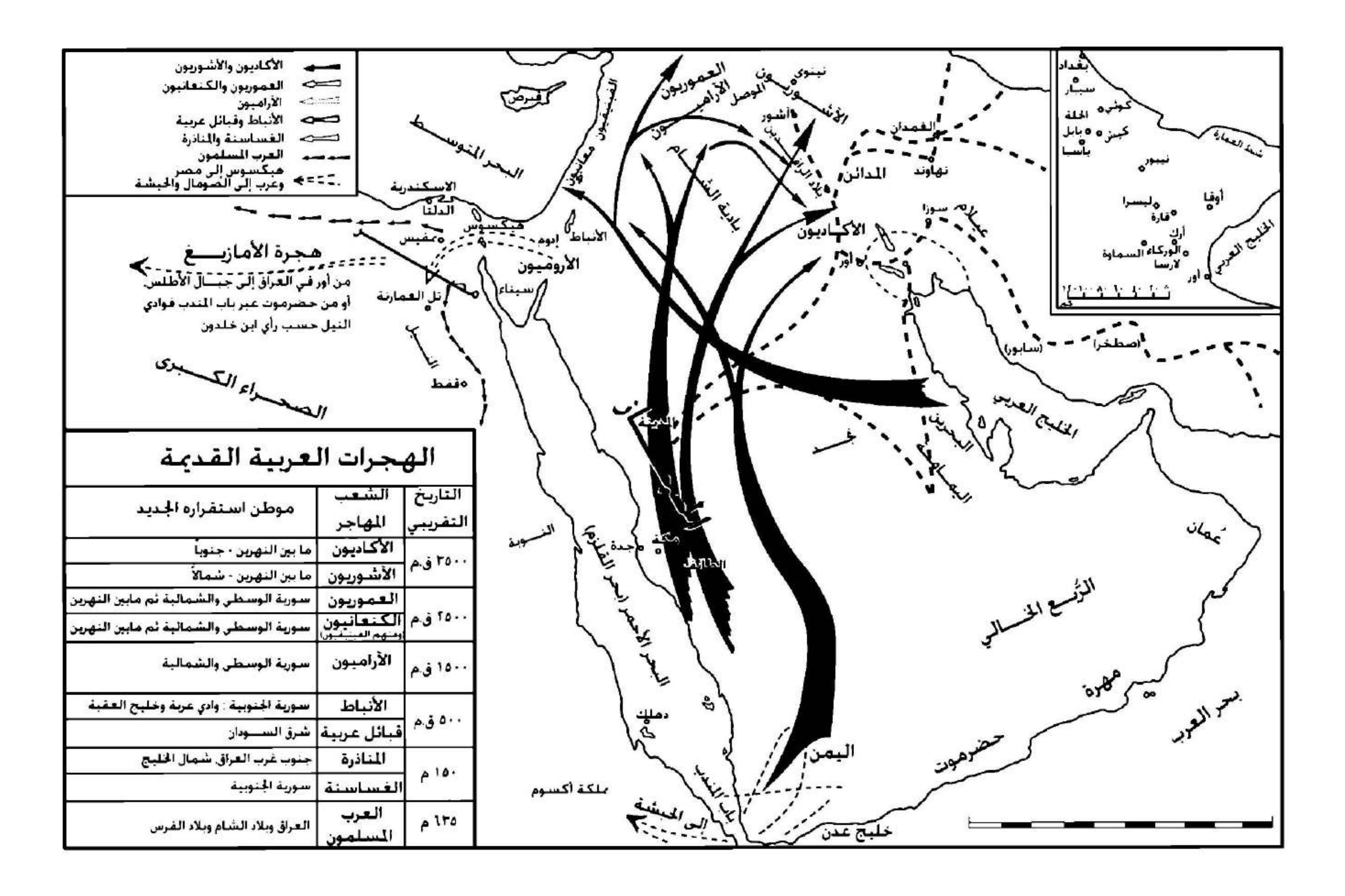


من الرسائل المتبادلة بين سومر وإيبلا (٢٣٠٠-٢٣٥٠ق.م)
إيبلا - تل مرديخ

الوجود القومي
في التاريخ القديم

ينحصر تاريخ الوطن العربي القديم في أقدم فترة عاشها في مسيرته الحضارية، وهذه الفترة تتميز بأهم ناحية في تاريخ المشرق العربي القديم، وهي هجرة جماعات من سكان شبه جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب على هيئة موجات متتالية. وقد أدّت الهجرات دوراً أساسياً في تغيير معطيات الكيان الحضاري العربي وتطورها في العالم القديم. وتبدأ هذه المرحلة وفق ما أجمع عليه العلماء والخبراء، في حدود الألف الثالث قبل الميلاد، أي قبل نحو خمسة آلاف عام.

ويؤكد الباحثون في أصول أقوام الشرق الأدنى أن أسلاف هذه الموجات كانوا يتمتعون بالأصل بحضارة عريقة قديمة في الطرف الجنوبي من جزيرة العرب، وكانت بلادهم في تلك الأزمان عامرة بأنهارها دائمة الجريان وأمطارها دائمة الهطول، إلا أنها تعرضت إلى تغيرات مناخية وجيمورفولوجية في نهاية العصر الجليدي الأخير في حدود سنة 20000ق.م، الأمر الذي أدى إلى انحباس الأمطار واندثار الأنهر، فأخذ الجفاف ينتشر منذ ذلك الحين في النطاق الصحراوي الحالي، مما اضطر الإنسان إلى الهجرة باتجاه أماكن ذات موارد طبيعية دائمة، فكان أن توصل هؤلاء السكان إلى شمالي الجزيرة، ومنها أخذوا يتوزعون إلى الشمال في موجات متعاقبة في المناطق الشرقية والشمالية الغربية من بلادهم، فمنهم من توجه نحو وادي الرافدين، ومنهم من استقر في فلسطين وسورية ولبنان، وهناك من توجه غرباً نحو شبه جزيرة سيناء وأطراف وادي النيل وبقية شمال أفريقيا، وهكذا تكون وطننا العربي الكبير من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي في التاريخ القديم.



الهجرات العربية القديمة

التاريخ التقريبي	الشعب المهاجر	موطن استقراره الجديد
٣٥٠٠ ق.م	الأكاديون	ما بين النهرين - جنوباً
	الآشوريون	ما بين النهرين - شمالاً
٢٥٠٠ ق.م	العموريون	سورية الوسطى والشمالية ثم مابين النهرين
	الكنعانيون (ومنهم الفينيقيون)	سورية الوسطى والشمالية ثم مابين النهرين
١٥٠٠ ق.م	الآراميون	سورية الوسطى والشمالية
٥٠٠ ق.م	الأنباط	سورية الجنوبية : وادي عربة وخليج العقبة
	قبائل عربية	شرق السـودان
١٥٠ م	المناذرة	جنوب غرب العراق شمال الخليج
	الغساسنة	سورية الجنوبية
٦٣٥ م	العرب المسلمون	العراق وبلاد الشام وبلاد الفرس

ومما ساعد على هذه المسيرات الحضارية أن "حدود" العراق الغربية و "حدود" مصر الشمالية الشرقية و "حدود" الأردن مفتوحة للصحراء، فكان بمقدور القبائل العربية المنتشرة في الجزيرة العربية أن تتوغل فيها دون أن يصادفها حاجز جغرافي (أي حدود طبيعية) يعيق توغلها، وهذا دليل علمي ثابت وقاطع أيضاً إلى جملة الأدلة والبراهين التي تؤكد أن الوطن العربي هو وحده جغرافية متكاملة، ولا توجد بين الأرض العربية حدود طبيعية على امتداد وطننا العربي الكبير، بينما الحدود الجغرافية الطبيعية تبرز وتتمثل في حدود الوطن العربي الكبير ذاته والمحيطة به، حيث نجد حدود الوطن العربي الشرقية تتمثل في سلسلة جبال زاغروس الممتدة على حدود العراق الشرقية وحتى عربستان؛ أما الحدود الغربية للوطن العربي فتتمثل بالمحيط الأطلسي؛ والحدود الشمالية تتمثل بسلسلة جبال طوروس؛ أما الحدود الجنوبية فتتمثل بالمحيط الهندي والصحراء الأفريقية الكبرى، كما تؤكد أن سلسلة جبال زاغروس وطوروس والخليج العربي وخليج عمان والمحيط الهندي والمحيط الأطلسي هي حدود معقدة كبرى.

ويحدد بعض الباحثين في التاريخ القديم وعلم الآثار، بداية الهجرات العربية إلى الهلال العربي الخصيب وشمال أفريقيا بالألف الرابع ق.م، وربما قبل ذلك على رأي البعض الآخر، ولكن معلوماتنا المستقاة من التنقيبات الأثرية الحديثة تحدد تاريخ الهجرات المذكورة بالألف الثالث ق.م، وهذه الهجرات هي: الأكادية، والكنعانية، والآشورية، والعمورية، والآرامية، والمصرية. وسنبحث فيما يلي في كل من هذه الهجرات العربية الرئيسة بما له من صلة مباشرة بموضوع بحثنا عن الوجود القومي التاريخي للأمة العربية منذ التاريخ القديم وارتباطها به، وفيما أنجزته من تراث حضاري عريق وناضج، لأن هذه الجذور ومضامينها الراسخة وما حققته من معطيات حضارية وإنسانية هي التي بلورت الشخصية العربية الواحدة.

ومن النظريات العلمية التي سلطت الضوء على هذا الموضوع هي "النظرية العربية" التي تجعل الجزيرة العربية مهداً للأقوام العربية القديمة. ومع هذا الرأي عشرات من المفكرين والعلماء مثل شبرنجر وشريدر وفنكلر وآدم سميث، بل إن معظم المفكرين والمؤرخين والأثريين والأنثوغرافيين واللغويين في الوقت الراهن يؤكدون ذلك.

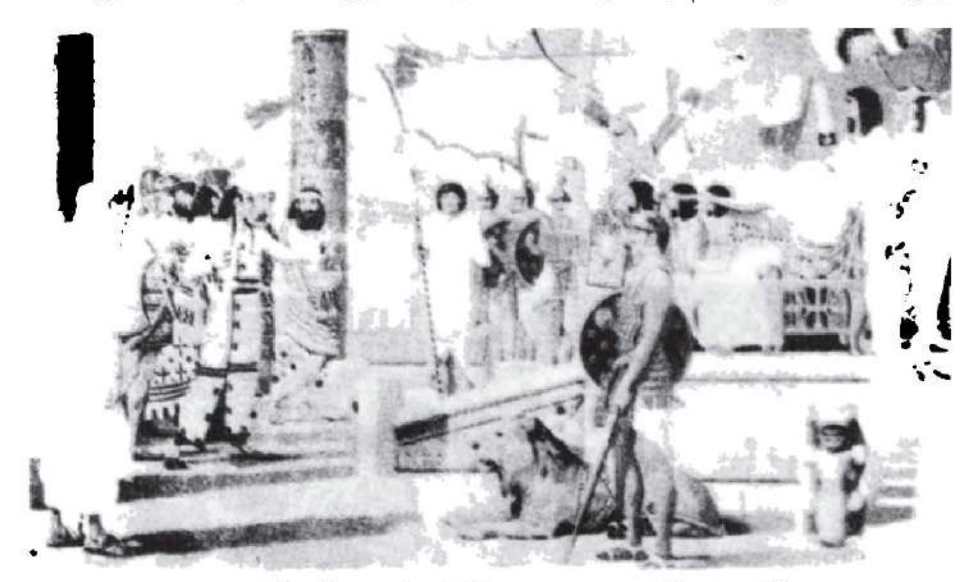
وعلى ذلك فإن الأقوام المسماة بالسامية هي في رأي شبرنجر "طبقات متعاقبة من العرب، ومصدرها الجزيرة العربية". والدليل على ذلك أن اللغة العربية هي أقرب أخواتها إلى لغة الأقوام العربية القديمة الأم، وأن أكثر الهجرات العربية المعروفة من الهجرة الأكادية حتى الفتح العربي الإسلامي خرجت من قلب الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب ولم تتخللها هجرات معاكسة، وأن الأقوام المهاجرة تتصف اجتماعياً وسلوكياً ونفسياً بالصفات والاتجاهات البدوية، ولا بد أن يكون منشؤها من وسط بوادٍ وفي حياة زراعية ورعوية. وسواء أكان مصدر العرب من جنوب الجزيرة أم شمالها أو نجدها أو باديتها، فالأمر واحد بالنسبة لنا.

من خلال ما تقدم تتضح معالم الصورة كون الجزيرة العربية هي مهد العرب الأساسي، وكانت منذ أقدام العصور وأعرقها قاعدة حضارة وإبداع، وهي موطن الجنس المتوسطي العربي الذي ولد أقواماً اصطلح سابقاً على تسميتها بالشعوب السامية. مع أن الرأي الأصح والأقرب إلى الواقع هو تسميتها بالشعب العربي القديم أو أقوام الجزيرة العربية، وهي حسب التسلسل الزمني:

أولاً: الأقوام العربية البائدة، أو (ما قبل التاريخية): وهي التي انطلقت من الجزيرة العربية، وعاشت في أرجاء الهلال الخصيب منذ الألف الرابع أو الخامس ق.م. وهي سابقة للسومريين في بلاد وادي الرافدين.

من آثار مصر القديمة
متحف شاغلوتنبرغ - برلين

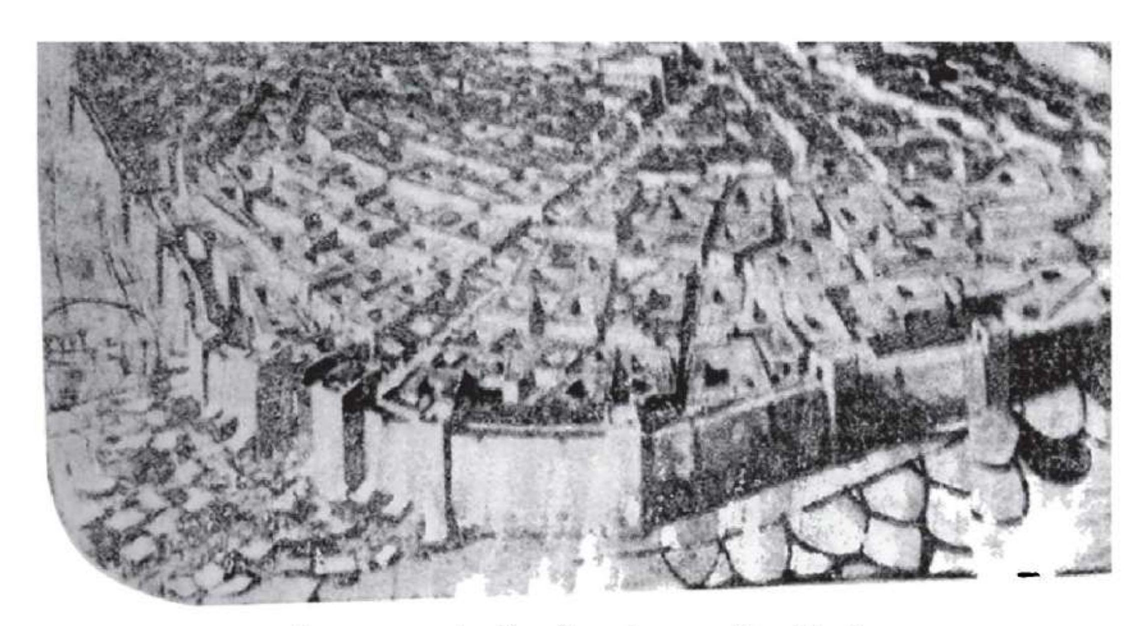
ثانياً: الأقوام العربية القديمة: كالأكاديين، والكيشيين، والماريين (سكان ماري)، والإيبليين (سكان إيبلا)، والأموريين، والكنعانيين، وهم يتكلمون لغات أو لهجات قريبة جداً من اللغة العربية.



الفرعون المصري رمسيس الثاني في ديوانه الرسمي



إحدى تعاويذ قدماء المصريين مرصعة بالأحجار الكريمة
ضمن مجموعة كنوز توت عنخ آمون



إيبلا - تل مرديخ - شمال غرب سورية

ثالثاً: عرب الجنوب: وهم عرب اليمن (معين، سبأ، حمير)، والعرب في النصوص الآشورية (عرب بادية الشام، وعرب الشمال بشكل عام)، والأنباط والايتوريون، والصفائيون، والثموديون، واللحيانيون، والحضريون (سكان الحضر في الموصل)، والتدمريون، ثم الغساسنة والمناذرة.

رابعاً: العرب بعد الفتح العربي الإسلامي وحتى الآن.

إن الجزيرة العربية وحدت تاريخياً وجغرافياً وحضارياً بين تيارات جنسية عديدة، فهناك تيار عربي متوسطي، وتيار عربي حامي من أفريقيا عبر البحر الأحمر، وتيار عربي من وادي الرافدين، وتيار عربي آسيوي من جهات الشمال. وهذه التيارات تطلق عليها تسمية العرب المستعمرية، وقد تفاعلت إثنوغرافياً ولغوياً وحضارياً ونفسياً مع أقوام الجزيرة العربية، بحيث أدى ذلك إلى تبلور الشخصية العربية الواحدة عبر حقب التاريخ.

وهناك فئة نجمت عن أصول خليطة حثية ميتانية وغير ذلك، ولم تكن جنساً أو عراقاً من الناحية الأنثروبولوجية، كما إنها لم تكن كذلك في أي وقت من الأوقات. واقتبست فيما بعد لغة من لغات العربية كالكنعانية مثلاً، واستعملتها. واستوطنت فترة ضئيلة جداً في وسط الكنعانيين (سكان فلسطين الأصليين)، ولكنها في عزلة تامة وتفرد مطلق في نفسيتها وأشكال مميزة لها كالملامح الثقيلة والأنوف المعوجة والشفاه الغليظة، ونعني بهذه الفئة المنعزلة (العبرانيين) الذين لم يكونوا في الفترة القصيرة والمحدودة التي قبعوا بها في فلسطين على انسجام مع أحد حتى مع بعضهم البعض.

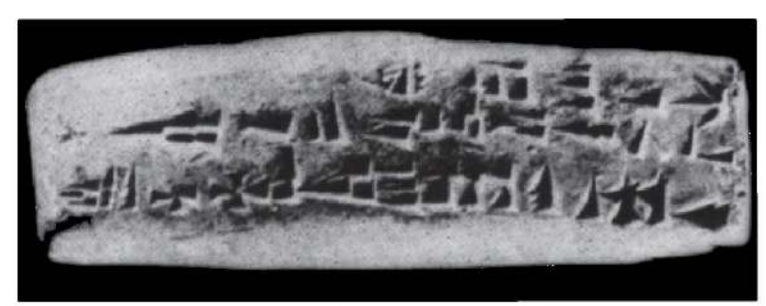
وتوجد هجرة ثابتة من الجزيرة العربية أتت في الألف الثالث ق.م مع الأكاديين تقريباً، واستقرت في شمالي العراق وفي بلاد كرستان وفي مناطق الأناضول الوسطى زمناً طويلاً، رفدتها واختلطت بها أقوام شمالية، فتغيرت ملامحها وطباعها، وأصبح لها شأن كبير ودور بارز في صنع حضارة شمالي بلاد الرافدين، وهم الآشوريون.

لقد تضافرت عدة عوامل مجتمعة مع انفتاح الجزيرة العربية على هلال مخصب في الشمال على جعل حركة الأقوام العربية منذ أقدم العصور نحو العراق والشام ومصر، فكانت حركة واسعة النطاق بذلك الاتجاه، ولكنها تختلف بطأً وسرعة، تتباين تفرقاً وكثافة حسب الظروف المناخية والبشرية في الجزيرة العربية، ومرفقاً لتبدل الأحوال السياسية في العراق وسورية وكنعان ومصر. وإن أقدم هذه الموجات على الأقل للألف الرابع ق.م أو قبل ذلك مثلما تحدثنا سابقاً، وإن أغلب المعلومات عن هذه الهجرات محدودة نسبياً لأنها حصلت قبل اكتشاف الكتابة وتدوين التاريخ.

وينوّه العالم (ليونارد وولي) بهذه الهجرات في سياق حديثه عن أرض جنوبي وادي الرافدين فيقول: "سكنها مع السومريون ساميون جنوبيون، هم أسلاف العرب المحدثين. وارتحلت بيوت وعشائر متفرقة منهم إلى الأرض الجديدة. وإن بعضهم سكن الأرض الممتدة على أعالي الفرات، ثم انحدروا إلى الجزء الأسفل من بلاد الرافدين". كما ينوه بذلك العالم (رينيه دوزو) فيقول: "إذا صح ما لا حظه الأستاذ أندريه بارو، فقد كانت هناك منذ مطلع الألف الرابع ق.م قبائل من الجزيرة العربية قد استقرت عند دجلة والفرات. وإن هذه الهجرة العربية القديمة هي التي نبت فيها الأكاديون وقاموا بتأسيس أول سلالة عربية في بلاد الرافدين، أو لعل الأكاديين هجرة تلتها. كما إن الأكاديين يشكلون هجرة واحدة مع العموريين - الكنعانيين الذين استقروا في سورية الطبيعية، ومنها تحرك البعض منهم إلى العراق فيما بعد، وأسس سلاسة بابل الأولى".

لقد عدّد العلماء والمؤرخون ست هجرات متعاقبة من جزيرة العرب، بين واحدة وأخرى نحو (1000 عام) تقريباً، ونظموها بشكل متتالٍ. وإن البعض منها

كان متعاصراً أو متقارباً. وإن أول هذه الهجرات هي هجرة الأكاديين إلى العراق في حدود النصف الثاني من الألف الرابع ق.م. والمؤكد لدينا أنها أسست دولة عظمى في بلاد الرافدين في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. وكان الآشوريون قد استقروا في شمالي العراق في حدود هذا التاريخ، ولكن دولتهم لم تظهر إلا بعد نحو ألف عام من دولة الأكاديين. وفي حدود أواخر الألف الرابع ق.م حل في بلاد الشام والفرات الأوسط العموريون الكنعانيون واستقروا فيها. وإن أصل اسم العموريين (الأموريين) مشتق من (أمورو) أو (مارتو) أي الغرب، لأنهم من الهجرات العربية التي اتجهت غرباً، وصار اسم "أمورو" اسما لسورية.



الأوغاريتية	اللاتينية	العربية	الأوغاريتية	اللاتينية	العربية	الأوغاريتية	اللاتينية	العربية
𐎀	A	ا	𐎊	Y	ي	𐎔	P	ف
𐎁	B	ب	𐎋	K	ك	𐎕	S	ص
𐎂	G	ج	𐎌	Š	ش	𐎖	Q	ق
𐎃	Ḫ	خ	𐎍	L	ل	𐎗	R	ر
𐎄	D	د	𐎎	M	م	𐎘	T̲	ث
𐎅	H	هـ	𐎏	D̲	ذ	𐎙	G	غ
𐎆	W	و	𐎐	N	ن	𐎚	T	ت
𐎇	Z	ز	𐎑	Z	ظ	𐎛	I	إ
𐎈	H	ح	𐎒	S	س	𐎜	OU	ؤ
𐎉	Ṭ	ط	𐎓	ʿ	ع	𐎝	(S)	(س)

الأبجدية الكنعانية - أوغاريت (القرن ١٤ق.م)

إن أقدم إشارة إلى العموريين كانت في زمن (سرجون الأول) مؤسس الإمبراطورية الأكادية في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. أما الفرع العموري المعروف بالكنعاني فقد استقر على طول الساحل العربي الممتد على البحر الأبيض المتوسط من الإسكندرية شمالي غرب سورية وحتى شمالي سيناء، وتوطدت علاقاته بمصر في وقت مبكر جداً. وقد عرف اليونان هؤلاء الكنعانيين في وقت لاحق باسم (الفينيقيين).

وفي منتصف الألف الثاني ق.م تمت هجرة العرب الآراميين إلى سورية الطبيعية، ونفذوا إلى منطقة الفرات الوسط حتى حدود الأناضول، وأسسوا أول دولهم في حدود نهاية الألف الثاني ق.م. وإن الكلدانيين الذين أسسوا آخر إمبراطورية عربية بابلية في بلاد الرافدين كانوا من الآراميين.

ومنذ نهاية الألف الثاني ق.م تظهر القبائل العربية باسمها الصحيح والثابت (عربي، يعربي، عريبي، عربى.. إلخ) في كل بادية الشام والعراق، ويحط في نحو منتصف الألف الأول ق.م بين العقبة وبصرى (الأنباط)، ومن ثم بين حمص والفرات التدمريون، وفي الموصل والجزيرة الحضريون، وعلى سيف حماد بين الحجاز والصفا اللحيانيون والثموديون والصفائيون، وتؤسس بعضها إمارات في حمص وجبل لبنان وحوران.

وفي حدود منتصف القرن الثاني الميلادي يأتي المناذرة في العراق والغساسنة في بلاد الشام، وكانت آخر موجة عربية هي مرحلة الفتح العربي الإسلامي في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، وكان من شأن هذه الموجة العربية تحرير الجزيرة العربية حتى حدودها الشمالية (جبال طوروس) من عهود الهيمنة الأجنبية (الفرس الساسانيون والرومان)، وقد تم تحرير أفريقيا العربية (شمال إفريقيا) ووصلت الحضارة العربية إلى الأندلس حتى شمالها الشرقي غرباً، وحدود الصين شرقاً.

ونحن لن نتبع التقسيم التقليدي للموجات العربية، وسنترك الجداول الصنعية، والقصد من ذلك أن نبين جهد المستطاع مسيرة دائمة وحركة لن تنقطع وتداخلاً وتفاعلاً دائماً، الأمر الذي يدل على أن العرب كانوا دوماً في هذه الأرجاء ولم يغيبوا في عهد من العهود.



نصـــب آشـــوري

حول الحضارات

الرافدية القديمة

أطلق اسم سومر قديماً على جنوبي وادي الرافدين، وعلى وجه التحديد منطقة السهل الرسوبي الخصب من تراكم الطين المترسب من مياه نهري دجلة والفرات عبر حقب جيمورفولوجية تقدر بآلاف السنين.

إن اسم سومر يعتبر من أقدم الأسماء التي أطلقت على جنوب العراق، واسم (شومرد) كلمة أكادية تكتب بالمصطلح المسماري "كي أن جي" أي (البلاد السيدة)، وأطلقت عليها أقوام الجزيرة العربية مصطلح "ملات سوميريم". وتمتد أراضي السهل الرسوبي في وادي الرافدين حالياً من جنوب بغداد وحتى الخليج العربي.

تعتبر سومر من المواقع المهمة التي شهدت أقدم حضارة معروفة في العالم القديم، وكانت مهد إرساء دعائم بدايات الحضارة البشرية نظراً لما أفرزته من قيم حضارية وإبداعية كانت بمثابة الأساس الذي ارتكزت عليه مقومات التمدن البشري فيما بعد.

لقد وجدت حضارة زراعية في جنوبي وادي الرافدين مثلما ذكرنا آنفاً منذ سنة (5500ق.م)، وتطورت خلال الآلاف السنين. ولا يمكن إعطاء هوية معينة لأصحابها قبل عهد الكتابة والتدوين، وقد تطورت القرى إلى مدن وتم إنشاء الدولة المدينة، أي دويلات المدن في الألف الرابع ق.م، وهو الزمن الذي برزت فيه اللغة والحضارة السومرية، في غضون ألف سنة تبعت (تل العبيد) واكتشاف الكتابة التي أصبح باكتشافها عاملاً مهماً في تدوين الأحداث التاريخية، وقدوم الأقوام

العربية القديمة من شبه جزيرة العرب وبادية الشام لتشكل السمة الحضارية للمنطقة وتبلورها منذ فجر التاريخ.

ويستدل من الدراسات اللغوية أن السومريين سكنوا في الجنوب من نيبور إلى الخليج العربي، وسكن الأكاديون والبابليون في الوسط، أما الآشوريون فقد سكنوا في الشمال.

يقسم فجر التاريخ السومري إلى ثلاث عصور فرعية، وهي:

1- عصر (أوروك).

2- عصر (جمدة نصر).

3- عصر (كيش).

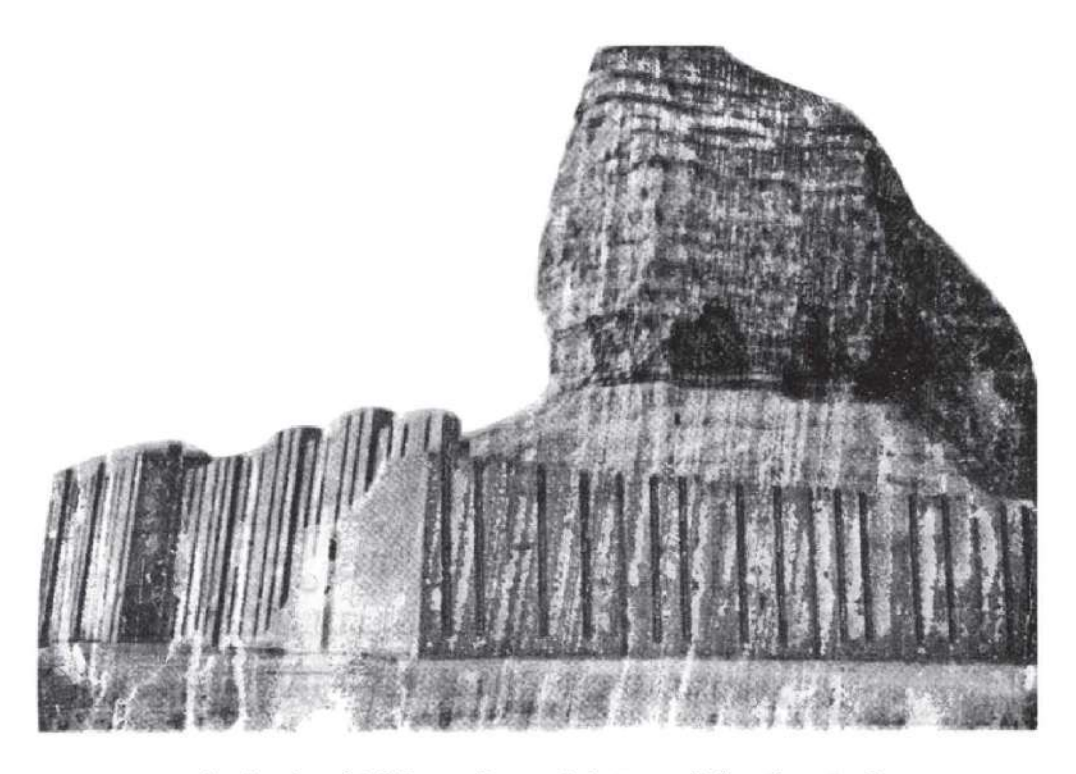
ورغم صغر بلاد سومر البالغة (25 ألف كم^2)، فقد قامت في بداية الألف الثالث قبل الميلاد دويلات سومرية متفرقة في مدن مختلفة في سومر، يحكم في كل منها سلالة مستقلة عن الأخرى.

وتطورت الكتابة في ذلك الحين، وأصبحت ملائمة لتدوين الحدث التاريخي، فأخذ ملوك تلك السلالات يصفون حروبهم وإنجازاتهم وأعمالهم، ويسطرون ذلك على ألواح الطين أو الحجر، وبذلك انتقل الناس إلى عهد جديد سمي بالعصور التاريخية، لأن الكتابة باكتشافها وتطورها أصبحت وسيلة لتدوين التاريخ.

وقد سميت بداية هذه المرحلة من الحكم في العراق بعصر دويلات المدن، أو عصر فجر السلالات. ويمتد هذا العصر فيما بين نهاية عصر جمدة نصر (2900ق.م) وبداية عهد الإمبراطورية الأكادية السرجونية (2350ق.م). وهو من أغنى أدوار وادي الرافدين من الوجهة الثقافية والحضارية. وقد وجدت معالم هذه الحضارة في أشهر المدن القديمة، مثل:

سبار (تل أبو حبة)، شوروباك (فارة)، كيش (تل الأحيمر)، نيبور (نفر)، لجش (تلو)، شنونة (تل أسمر)، خفاجي (تل حرب)، ماري (تل الحريري)...

مقطع من واجهة المعبد الكاشي في الوركاء الذي بناه كرينداش



زقورة دور كوريكالزو (عقرقوف) من العهد الكاشي في العراق

أما بالنسبة للأكاديين، فقد بدأت سلالتهم عملياً بتأسيس إمبراطورية سرجون الأكدي. وهي أول السلالات العربية في وادي الرافدين، وسميت بالسلالة الأكدية نسبة إلى عاصمتها مدينة أكد شمالي سومر. وقد أسست هذه السلالة أول إمبراطورية قديمة في بلاد الرافدين والعالم دامت قرابة قرنين من الزمن، وامتدت من الخليج العربي حتى البحر المتوسط مع قبرص وكريت.

لقد كانت فترة الأكاديين لامعة من الناحية السياسية والحضارية، حيث نشرت العلوم والمعارف والفنون والكتابة في العراق والأقطار المجاورة. وقد وجدت ألواح من الطين مكتوبة بالخط المسماري وباللغة الأكادية في كثير من المناطق البعيدة في الأناضول وعربستان. وقد ترقت الفنون الجميلة والقيم الإبداعية، حيث توجد من هذه المرحلة تماثيل وجداريات منحوتة تمثل مدى الرقي الذي بلغ شأواً كبيراً.

وفي المرحلة ما بين (2111-2002ق.م) برزت سلالة أور الثالثة، وقامت بإحياء الحضارة السومرية، حيث تقدمت القيم الثقافية والإنسانية في هذا العهد تقدماً ملموساً، وانتشرت المعارف من علوم وآداب وفنون، ودونت كثير من الأخبار التاريخية القديمة والقصص الميثولوجية، وشرّعت القوانين التي تنشر قيم العدالة في المجتمع.

وبعد سقوط سلالة أور الثالثة تألفت عدة دويلات في مدن مختلفة بعد احتدام الصراع بين الملوك المحليين. وكانت المدن الأساسية التي أصبح لها ملوك وسلالات هي (إيسن)، و (لارسا)، و (ماري)، و (بابل) و (الوركاء)، و (كيش)، و (إشنونة)، و (سبار)، و (آشور). وقد انتهى الصراع على السلطة بعد فترة حددت بقرنين من الزمن إثر انتصار مدينة بابل في زمن ملكها السادس حمورابي الذي قام بضم المدن كافة إلى دولة موحدة عرفت بالمملكة البابلية القديمة. وقد سمى المؤرخون الحقبة الواقعة بين سقوط سلالة أور الثالثة (2003ق.م) وسقوط بابل (1594ق.م) بالعهد البابلي القديم الذي دام أربعة قرون. وقد عرفت في هذا العهد دويلات حكمتها سلالات، وهي على التوالي: سلالة إيسن، سلالة لارسا، سلالة بابل الأولى.



كتابات مسمارية
أكادية ـ بابلية

لقد بلغت حضارة العراق القديم في العهد البابلي الأول أوج عظمتها وازدهارها، وعمت اللغة البابلية تكلماً وكتابة في بلاد الشرق الأدنى القديم، وارتقت العلوم والمعارف والفنون، واتسعت التجارة اتساعاً لا مثيل له في تاريخ المنطقة، وكانت الإدارة المركزية تحكم البلاد بقانون موحد سنّه حمورابي لجميع شعوب هذه البلاد.

وفي شمال العراق استقر الآشوريون بين الموصل والشرقاط، وكانت هذه المنطقة تعرف باسم (سوبارتو)، فقامت هذه الجماعات بتأسيس مدينة آشور، والنمرود، ونينوى، وخرسباد دور شروكين (أي مدينة سرجون).

لقد كان الآشوريون يتكلمون بلهجة من لهجات أقوام الجزيرة العربية القديمة قريبة من اللهجة التي يتكلم بها الأكاديون، وكتبوا لغتهم وثقافتهم بالخط المسماري.

وبالنظر لموقع بلاد آشور، فقد بنت نظامها على أساس حربي، وقد علّمت الحرب الدائمة مواطني آشور كيف يحمون أراضيهم ويتحينون الفرص للاستقلال في مدنهم. وقد ساعدتهم فتوحاتهم على توسيع تجارتهم، فقاموا بإنشاء محطات تجارية في عدة أماكن في جنوبي شرق آسيا الصغرى.

واهتم الآشوريون بالآداب والفنون الجميلة، فأتقنوا فن النحت والتصوير وانفتحوا على الثقافة البابلية. كما اهتموا بالناحية الأدبية والثقافية، ومما يدل على ذلك من التراث الحضاري الذي تركوه في خزائن الكتب (ألواح الطين) في مكتبة نينوى التي أنشأها الملك بانيبال، والتي تعتبر أول مكتبة في تاريخ البشرية.

جلجامش..

الإنسان والخلود

في حدود 275 سنة ق.م أسس الملك "مس كي أجاشر" سلالة أوروك (الوركاء) الأولى، ويقال إن هذا الملك بسط حكمه من جبال زاغروس حتى البحر المتوسط، ثم خلفه ابنه "نمركار" الذي جعلته الأساطير من أنصاف الآلهة، واحتل مدينة أراتا في إيران ليحصل على الحجارة والمعادن من أجل بناء المعبد. وقد خلد هذه الواقعة شاعر سومري واعتبرها صموئيل نوح كريمر مؤلف كتاب "من ألواح سومر"، أول حرب نفسية في التاريخ، لذلك تدخل ضمن باب الأدب السياسي.

إن عدد ملوك سلالة الوركاء الأولى بلغ 12 ملكاً حكموا 2320 سنة وفق تقدير بيت الملوك، وردت بعض أسمائهم في الأساطير المدونة في الأخبار التاريخية التي اكتشفت في تنقيبات الوركاء.

وقد خلف امركار سالف الذكر ابنه لوكال بندا (الراعي الصالح) الذي ألّهته الأساطير، وجعلته أباً لجلجامش بطل الملحمة العراقية الشهيرة، وخلف جلجامش ابنه. دوموزو (تموز) الذي عرف بأنه إله النبات والخضرة في حدود (2700ق.م). وفي عهد تموز هدد سيطرة الوركاء حاكمان من كنش، وهي إحدى دويلات المدن لسومرية القديمة، والحاكمان هما "إن مي بارا جي سي" المعاصر له، و "اجا" المعاصر لجلجامش، ولم يكونا مجرد قائدين عسكريين، بل كهنة أيضاً، فقاما ببناء بيت الجبل (معبد انليل كبير الآلهة السومرية) في أواسط نيبور في أواسط بلاد سومر (أي كور). وفي تلك الفترة وقعت المنافسة بين كيش تحت حكم أجا، وأوروك تحت حكم جلجامش في حدود 2675ق.م. وكادت أن تكون

حرباً من أجل السيادة الكاملة على سومر، فقام جيش كيش بمحاصرة مدينة الوركاء حصاراً قصيراً، ثم تصالحت المدينتان. ويبدو أن السيادة بقيت بيدا لوركاء. وقد خلد الحادثة شاعر سومري بقصيدة (جلجامش وأجا ملك كيش)، وفيها يذكر أول مجلس نيابي في التاريخ مؤلف من مجلسين: مجلس شيوخ ومجلس محاربين. وقام جلجامش بتشييد أسوار مدينة الوركاء، وأقام بعض المعابد فيها، ثم قضى على أجا آخر ملوك سلالة كيش.

جلجامش:

ظهرت في تاريخ العراق القديم شخصية سياسية وأدبية متمثلة بجلجامش الذي حكم في النصف الأول من الألف الثالث ق.م، أو بالأحرى نهاية عهد الانبعاث السومري سلالة أور الثالثة. وقد تم جمع القصائد الشعرية والأساطير السومرية، ومن ضمنها ملحمة جلجامش الشهيرة.

لقد أصبحت أعمال جلجامش وفعالياته ومغامراته مادة غريزة للملاحم وقصص سومرية وبابلية عديدة، وقد ورد اسمه كما ذكرنا في ثبت الملوك السومري عن سلالة أوروك الأولى، وهي سلالة ثانية حكمت بعد الطوفان، وكانت سلالة كيش أول سلالة حكمت بعد الطوفان مباشرة، ويأتي ترتيب حكم الملك جلجامش في سلالة الوركاء الأولى خامس ملك، وقد حصص له ثبت الملوك 126 عاماً.

وتروي القصص (كما جاء في ملحمة جلجامش) أن أمه هي الآلهة ننسون زوجة الإله لوكال بندا، وذكره أحد ملوك الوركاء (أنام) من العهد البابلي القديم في مطلع الألف الثاني ق.م أن سور مدينة الوركاء كان من أعمال جلجامش.

وكما ذكر في كتابات الملك أورنمو مؤسس سلالة أور الثالثة (2100-1900ق.م) أن جلجامش صار ملكاً وقاضياً في العالم الأسفل، وذكر بهذه الصفة في تعويذة دينية باسم الإله جلجامش.

ولعل أقدم كتابة ذكرت اسم جلجامش ولوكال بندا بصفتهما اسمين مؤلهين هو الألواح الصورية التي وجدت في شروباك القديمة (فارة)، ويرجع زمنها على الأرجح إلى أواخر عهد جمدة نصر (3200ق.م).

وموجز القول إنه يبدو من إجماع الأدلة الكتابية والأثرية أن جلجامش كان أحد حكام المدن السومرية المدولة في مطلع عصر فجر السلالات (3000-2400ق.م) Early Dynastic Period، ولعله من أواخر عهد جمدة نصر المذكور آنفاً؛ وأنه حكم في الوركاء نسبت إليه أعمال البطولة المختلفة في القصص والأساطير السومرية، ومنها قصة أجا ملك كيش، ونزاعه مع جلجامش.

أما كتابة اسم جلجامش فقد وردت في عدة صيغ وهي:

1- في السومرية: GISH-BIL-GA-Mesh.

2- وبالطريقة الرمزية بالعلامات: IS (GISH) TU-BAR.

وقد ذكرت هذه الصيغة المذكورة في النصوص الأكادية مرادفة للقيم الصوتية للاسم أي: GI-IL-GA-MESH.

3- وفي ألواح العهد البابلي القديم كتب الاسم مختصراً بمجرد: GISH.

4- وفي النسخ المستخرجة من عاصمة الحثيين (في النص الأكادي والحثي): GISH-GIM-MASH.

5- وذكره بعض الكتاب الرومان بصيغة: Gilgamos.

6- وفي إثبات آرامية بعض الملوك البابليين ذكر البطل بصيغة: جميموس، وجلجموس.

هذا ولا يعلم اسم جلجامش بالضبط، وقد ذكرت بعض النصوص الأكادية ترجمة له باللغة الأكادية معناها المحارب الذي في الطليعة، كما إنه هناك احتمالاً لاسمه السومري ومعناه الرجل الذي سيكون نواة لشجرة جديدة، أي الرجل الذي سيولد أسرة وسلالة.

مدخل:

تعتبر ملحمة جلجامش من أهم الأعمال الإبداعية التي أنجزت في التاريخ القديم، حيث إن جلجامش، البطل والباحث الأزلي عن الحقيقة، يتناول أهم المواضيع الإنسانية، محاولاً البحث عن سر الخلود؛ هذا الحلم البشري الجميل.

إن ملحمة جلجامش تعتبر من أشهر مقطوعات الآداب الميثولوجية التي ظهرت في العراق القديم، واشتهرت في أنحاء العالم القديم والوسيط والحديث كافة، حيث ترجمت إلى معظم لغات العالم.

ومثلما ذكرنا آنفاً، فقد تم جمع الكتابات السياسية والأدبية والقصائد الشعرية والأساطير كافة، ومن ضمنها ملحمة جلجامش، ومع ذلك فإن الملحمة لن تأخذ شكلها النهائي. ومن المحتمل أن أحد الشعراء المبدعين والنابهين استطاع أن يعيد صياغة الملحمة من جديد في نهاية الألف الثاني ق.م، بحيث أصبحت كما هي عليه في الوقت الراهن من ناحية الشكل والمضمون الموحدين.

وككل الأبطال الأماجد جرت أحداث غير اعتيادية حين ولد جلجامش، فكان جدّه يخشى على تاجه نتيجة تنبؤ، فألقى بحفيده من أعلى، ولكن التنبؤ يتحقق رغم كل شيء، حيث ينتصر الفتى جلجامش على جده وينصّب نفسه ملكاً على الوركاء، حيث يكون الفتى البطل ظاهرة رائعة "بعد أن خلق جلجامش، أحسن الإله خلقه، حباه (شمش) السماوي بالحسن، وخصه (أدد) بالبطولة".

جعلت الآلهة العظام جلجامش ملكاً قوياً حازماً وصارماً، واشتكى أهل الوركاء من أنه يرسلهم إلى جبهات القتال ولا يدعهم في هدوء واستقرار وحالة تراخٍ لحظة واحدة، وسمع شكواهم رب السماء "آنو"، وبمساعدة الإله تم خلق بطل قوي باسم "أنكيدو":

وأخيراً سمع الإله شكواهم

فاستدعى آلهة السماء رب "أوروك" وقالوا له:

ألم تخلق أنت هذا الوحش الجبار؟؟

الذي لا يضاهي فتك أسلحته سلاح آخر

والذي تستيقظ رعيته على قرع الطبل،

جلجامش الذي لم يترك أباً طليقاً لابنه

وما فتئ يضطهد الناس بمظالمه ليل نهار

على أنه هو (راعي) أوروك، السور والحمى

هو راعيهم، ولكنه يضطهدهم، وهو قوي جميل وحكيم

إن جلجامش لم يترك عذراء لحبيبها

ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل.

ولما استمتع "آنو" الجليل إلى شكواهم

دعوا "أوروك" العظيمة وقالوا لها:

يا "أوروك"، أنت التي خلقت هذا الرجل بأمر "إنليل"، فاخلقي الآن معارضاً له يضارعه في قوة اللب والعزم ليكونا في صراع مستديم لتنال أوروك السلام والرحمة.

حالما سمعت (أوروك) ذلك

تصورت في لبها صورة لـ (آنو)

وغسلت (أوروك) يديها، وأخذت قبضة من طين، ورمتها في البرية، وفي البرية خلقت (أنكيدو) الصنديد، سليل نينورتا القوي، يكسو الشعر جسمه، وشعر رأسه كشعر المرأة، ونمت فروع شعر رأسه جدائل متموجة.

وبعد ذهاب الأحلام المزعجة قلق أنكيدو، وتصور نفسه بين الموتى في العالم الأسفل، وقد داهمه مرض سرعان ما قضى على حياته، وحزن جلجامش حزناً شديداً على صديقه وراح ينعوه:

"اسمعوني أيها الشيوخ

من أجل أنكيدو، خلّي وصاحبي، أبكي وأنوح نواح الثكلى..

إنه الفأس التي في جنبي، وقوس في يدي

والخنجر الذي يدرأ عني

وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي

لقد ظهر شيطان وسرقه مني

خلي وأخي الأصغر الذي اقتنص الحمار الوحشي

في التلال والنمور في الصحارى

(أنكيدو) صديقي وأخي الأصغر

الذي اقتنص الوحش في النجاد والنمور في الصحارى..

تغلبنا معا على الصعاب، وارتقينا أعالي الجبال

ومسكنا بالثور السماوي ونحرناه

قهرنا (خمبابا) الساكن في غابة الأرز

فأي سنة (من النوم) هذه التي غلبتك وتمكنت منك؟؟ طوال الظلام فلا تسمعني..

ثم أخذت الحيطة تغزو جلجامش، وراح يولي وجهه شطر الخلود الصعب، حيث البشر العقارب يحرسون المداخل والمخارج لمقر إله الشمس (شمش). وبعد الرجاء والابتهال استطاع أن يحصل منهم على الموافقة لاجتياز الجبل المظلم. وبعد تخطي الأهوال والمصاعب والمخاطر العديدة تمكن جلجامش من الوصول إلى الأهداف التي رسمها في نهجه.

قراءة في الملحمة:

ظلت قصة "الحياة والموت" تمثل كابوساً مقلقاً يقضي مضجع الإنسان، ويحير تفكيره منذ أن وعى "وجوده". وأدرك أنه عيان يختلف ويتميز عن غيره من الأشياء الجامدة الخاوية المحيطة به، وأنه "كائن" ينفصل عنها بكونه وجود "ينكمش" و "ينتشر" بمحض إرادته، وأنه كائن يتنفس ويريد ويرفض. وشخصت أمامه الحياة، أحياناً، وقد تلبست بثوب الموت القشيب، الذي لا تنوي الفكاك منه. وفي أحيان أخرى، ظهر له أن "الموت" ونقيضه "الحياة" رحلتان. وظلت الحياة، في نظره، عزاء مؤقتاً لا مبرر لها. وبرز "الموت"، في تصوره، وكأنه عزاء طويل يفتقد كل معنى. وانكشف الوجود (الإنسان - الطبيعة) أمام ناظريه، وكأنه خواء لا محدود.

وأثارت هذه القضية خوف الإنسان وقلقه، ودفعته إلى المعان في الوجود، وساقته إلى حوار داخلي طويل عبّر عنه بتساؤلات عديدة وردت في أول حوار أجراه الإنسان في أول نص ملحمي سجلته البشرية:

قال "آتو - نابشتم" لجلجامش:

إن الموت قاسٍ لا يرحم

هل بنينا بيتاً إلى الأبد؟

وهل ختمنا عقداً يدوم إلى الأبد؟

وهل يرتفع النهر ويأتي بالفيضان على الدوام؟

ولا فراشة لا تكاد تخرج من شرنقتها فتبصر وجه

الشمس حتى يحل أجلها ولم يكن دوام

وخلود منذ الأزل.

ويظل جلجامش وأنكيدو قطبا هذه الملحمة، يعكسان هموم الإنسانية عبر أحداثها تجاه هذه القضية. يهوى أنكيدو القطب الأول بعد رحلتين: في رحلة الموت الأولى قتل خمبابا وقطع شجرة الأرز، وفي رحلة الموت الثانية قام بقتل الثور السماوي وفجيعة عشتار الجليلة:

أنكيدو لم يرفع عينيه

فحبس قلبه فلم ينبض

وعند ذاك يرفع صديقه كالعروس

وأخذ يزأر حوله كالسبع

وصار يروح ويجيء أمام الفراش وهو ينظر إليه

وينتف شعره ويرميه على الأرض.

ويسيطر القلق والحيرة والانفصام عن الحياة على القطب الثاني جلجامش، فيهيم على نهجه طارقاً كل باب وسالكاً كل طريق، ثم يعود خائباً منكسراً وقد سقط كل معنى للحياة من عينيه:

بكى جلجامش بكاءً مراً، وهام على وجهه في

الصحارى (وصار يناجي نفسه):

إذا ما متّ أفلا يكون مصيري مثل أنكيدو؟

لقد حل الحزن والأسى بروحي

خفت من الموت وها أنا أهيم في البوادي

وسقط وجوده في مجانبة خالية من كل فعل يحدد طبيعته، وظل يلهث خلف برقع زائف: برقع الخلود الذي ضيّع على جلجامش حياته في متاهات لا حد لها:

من أجل من يا "أور شنابي" كلّت يداي؟

ومن أجل من استنزفت دم لبي (قلبي)؟

لم أحقق لنفسي مغنماً

يأتي هذا المخلوق فيخطف النبات مني

وجدت أن هذا نذير لي أن أتخلى عن مطلبي

وأترك السفينة في الساحل.

يبقى جلجامش كائناً نسبياً يتأثر ويؤثر في الظروف، يعمل ويعيش ويلهو؛ يصنع الشر ويستغل الآخرين وينزل الظلم بهم:

جلجامش الذي لم يترك ابناً طليقاً لوالده

وما فتئ يكدر الناس بمظالمه ليل نهار

وإنه كائن نسبي من حيث أنه يعمل ضد الشر والاستغلال ويكافح في معترك الحياة ويسلك الدروب الشائكة والصعبة من أجل إنزال العقاب بأهلهما:

يا ننسون لقد اعترفت أمراً جسيماً

اعترفت سفراً بعيداً إلى موطن "خمبابا"

اذبح خمبابا المارد

وأمح من على الأرض كل شر

ويعيش في رحم الحياة يتفاعل ويؤثر في تناقضاتها، يتفاعل في أفراحها وأحزانها مع الآخرين، يختار معهم ما يختارون ويرفض ما يرفضون.. إنه جزء لا يتجزأ منهم، وهم المرايا التي تعكس له وجوده:

خاطب شيوخ أوروك جلجامش وقالوا له:

عسى أن ينصرك إلهك الحامي

وعسى أن يرجعك سالماً في طريق عودتك إلى بلدك

ويعيدك سالماً إلى ميناء الوركاء

ويحيا حياة وحيدة متفردة، منغلقة تعاني الغربة في عالم غريب بأشيائه وظواهره وزخارفه وترهاته وأناسه، كذات تحمل هموماً وآمالاً ووعوداً من نوع خاص:

كيف لا تذبل وجنتاي ويمتقع وجهي

ويملأ الأسى والحزن قلبي، وتتبدل هيئتي

لقد أدرك مصير البشر صاحبي

وأنا سأموت مثله فلا أقوم أبد الآبدين

.. أيكون في وسعي ألا أرى الموت الذي أخشاه وأرهبه.

وبطل "جلجامش" مخلوق صنيعة فعل فذ لخالق متعال "كائن مطلق" وأرضاً مواتاً وقد نفخت فيها الآلهة "نبض" الحياة:

خلق جلجامش، وأحسن الإله العظيم خلقه، حباه "شمش" السماوي الحسن، وخصه "أدد" بالبطولة.

وإنه رمز المدينة، والمدينة رمز الصراع بين "الحياة العمل".

و "الحياة" في صورة بحث ونشدان الخلود:

إلى أين تسعى يا جلجامش

إن الحياة التي تبغي لن تجد

حينما خلقت الآلهة العظام البشر

قدرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة.

وأدرك بعد فوات الأوان وضياع العمر أن "الحياة العمل" هي الخلود الإنساني الوحيد:

لقد سلك أسفاراً بعيدة متقلباً ما بين التعب والراحة

.. بنى أسوار "أوروك" المحصنة

.. اعلُ.. وتمشَّ فوق أسوار "أوروك"

وافحص قواعد أسوارها، وانظر إلى آجر بنائها

وتيقّن أليس من الآجر المفخور..

ويعكس وجود "أنكيدو" عملية الخلق الإلهي، ذلك الخلق الذي تلتقي فيه الملحمة مع عملية الخلق في أديان عديدة، "فأنكيدو" طينة: ماء وتراب نفخت فيها الآلهة "الحياة":

غسلت "أورو" يديها وأخذت قبضة من طين

ورمتها في البرية، وفي البرية خلقت "أنكيدو" الصنديد.

"وأنكيدو" رمز الخلاص لأهل "أوروك"، كائن نسبي؛ صيغة؛ كائن مطلق في غوى الحياة (البغي المومس):

فأسفرت البغي عن نهديها، وكشفت عن عورتها

فانجذب إليها وتعلق بها

.. ذعر "أنكيدو" ووهنت قواه

خذلته ركبتاه..

ويشير "الخبز والشراب". إلى أنهما رمزان يدلان على الحضارة، وأن "لبن الحيوان" رمزه للعودة إلى الطبيعة إلى الحياة الأولى. ويعيش "أنكيدو" في لجة الصراع بين "الخبز" الحضارة وتعقيداتها، و "اللبن" الطبيعة ببساطتها، ويسقط "أنكيدو" بفعل تأثير وإغواء مظاهر الحضارة (الخبز، الشراب، البغي المومس):

علام تلعن البغي يا أنكيدو؟

تلك التي علمتك كيف يؤكل الخبز..

وسقتك خمراً..

وإن "خمبابا" رمز، أو إن استطعت فقل مستودع استقرت فيه شرور العالم، وبلاء ابتلت به الخليقة. وإن قتله يمثل خطورة تقرب قاتله مرتبة في سلم الصعود إلى الخلود:

.. أما "خمبابا" فزئيره عباب الطوفان

.. تنبعث من فيه شواظ النيران ونفسه الموت.

وتبقى صاحبة الحانة البغي، الصياد، الرجل العقرب الملامح، رموزاً تدل على الحياة بكل ما تحمله من "هموم" و "معاناة"، من "أفراح" و "أحزان"، حيث إنهم مجموعة من "مختبرات" الحياة تدور فيها تجارب الإنسانية التي تتميز بأفعالها المحدودة:

أما أنت يا جلجامش فليكن كرشك مملوءاً على الدوام

وكن فرحاً مبتهجاً مساء

وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك

وارقص والعب مساء نهار

.. وحلل الصغير الذي يمسك بيدك

وافرح الزوجة التي بين أحضانك

.. هذا هو نصيب البشرية، ويبقى "خمبابا":

.. سمع "خمبابا" الصوت

فغضب وهاج وزمجر صائحاً:

من الداخل المتطفل

الذي كدر صفو الغابة..

وأشجار الأرز..

سأمد يدي وأقطع أشجار الأرز

وليكن لي اسماً خالداً.

و "عشتار" الجليلة:

ماذا علي أن أعطي لو أخذتك زوجة

.. أي خير سأناله..

أنت، أما أنت إلا الموقد الذي تخمد ناره في البرد

أنت كالباب الخلفي لا يحفظ من ريح ولا

عاصفة.

و "الثور السماوي":

.. طارد "أنكيدو" ثور السماء ليمسك به

.. وجلجامش، مثل قصاب ماهر، طعن الثور السماوي طعنة قاتلة.

و "صاحبة الحانة":

ما الذي أنكرت فيّ حتى أوصدت بابك

.. وأحكمت غلقه..

لأحطمن بابك وأكسر المدخل.

والملاح "أور شنابي":

.. لأنك حكمت صور الحجر..

وإذا تحطمت.. فلا يمكننا العبور.

و "اوتونابشتم":

أجل. في مضجعي يقيم الموت

حيثما.. أضع قدمي يربض الموت

و "النبات": يوجد نبات مثل عشب ينبت في المياه

.. فإذا ما حصلت يداك على هذا النبات وجدت

الحياة (الجديدة).

و "الحية":

فشمت الحية شذى (نفس) النبات

فتسللت واختطفت النبات

ثم نزعت عنها غلاف جلدها

تبقى رموزاً تدل على معانٍ يسوقها الإنسان، أو وسائل يستخدمها ليحدد بها جدوى الحياة، ويلتمس فيها هدفية العالم، ونهاية المطاف في التجربة الإنسانية، ومدى جدية عمله، ومبرر وجوده في هذه التجربة التي أدرك فيها أنه "وجود مؤقت"، أو "رحلة موت" بين موتين، رحلة من الموت قبل خلق "جلجامش"، ورحلة "خمبابا" والثور السماوي، وموت "أنكيدو": ونشدان الخلود الذي انتهى إلى عدمية لا تسوّغ أو تفسر سبب "وجوده".

وتظل الآلهة "شمش":

إنني ذاهب يا شمش وإليك أرفع يدي بالدعاء

أرجعني سالماً إلى ميناء "أوروك"

عسى أن تنال روحي الخير والبركة.

و "أدد":

.. بلغت رعود الإله "أدد" عنان السماء

فأحالت كل نور إلى ظلمة

وتحطمت الأرض الفسيحة كما تتحطم الجرة..

و "أورو":

يا "أورو" أنت التي خلقت هذا الرجل

فاخلقي الآن غريماً له يضارعه في قوة اللب والعزم

وليكونا في صراع مستديم لتنال "أوروك" السلام والراحة.

و "آنو":

.. حتى الآلهة ذعروا من عباب الطوفان

فهربوا وعرجوا إلى السماء

"آنو" لقد استكانت الآلهة، وربضوا كالكلاب خارج الجدار.

و "الليل" و "أيا":

(رأيت) أن (آنو) و (إنليل) و (أيا) وشمش السماوي

قد اجتمعوا يتشاورون، وقال آنو لأنليل:

لأنهما قتلا الثورة السماوي وقتلا "خمبابا":

وتظل رموزاً تدل على الظروف، التي تؤثر في الإنسان "جلجامش" "أنكيدو"، "أهل أوروك". ويبقى الإنسان في تصور هذه الآلهة كمية مهملة تلملم شتاتها متى شاءت؛ تفرزها وتفرقها متى رغبت دون مبرر مقنع. ويظل وجود هذه الآلهة من غير مبرر أو تفسير. والتفسير الوحيد الذي نراه وتقترحه أن هذه الآلهة هي مخلوقات من صنع "تفكير" الإنسان، فهي تتصارع وتتناسل، تحب وتبغض، يحتدم بينها النقاش مع أبناء جلدتها. وتبقى هذه الآلهة نواميس مفروضة: تصورها وفرضها الإنسان على الطبيعة وعلى الحياة، وعلى شؤونه. وقد انتهى من ذلك إلى تقرير "جبرية" و "حتمية" أفعال هذه الآلهة النواميس باعتبارها "قوانين" لا يمكن الخروج عليها بأي حال من الأحوال.



جلجامش ـ جدارية من القصر الملكي الآشوري في شروكين (خور سيباط) القرن الثامن ق.م

أضواء
على ملحمة جلجامش

يصح أن نسمي (ملحمة جلجامش) بأوديسة العراق القديم. ويضعها الباحثون ومؤرخو الأدب المحدثون بين شوامخ الأدب العالمي.

إن ملحمة جلجامش أقدم نوع من أدب الملاحم البطولي في تاريخ جميع الحضارات، وإلى هذا فهي أطول وأكمل ملحمة عرفتها حضارات الشرق الأدنى القديم، وليس ما يقرن بها أو يضاهيها من آداب الحضارات القديمة قبل اليونان.

ومع أن ملحمة جلجامش قد دونت قبل 4000 عام، وترجع أزمان حوادثها إلى حقب أخرى أبعد، فإنها مثل الآداب العالمية الشهيرة، ما تزال خالدة وذات جاذبية إنسانية عامة في جميع الأزمان والأمكنة، لأن القضايا التي عالجتها لا تزال تشغل بال الإنسان وتفكيره، وتؤثر في حياته الفكرية والعاطفية، مما جعل مواقفها وحوادثها مثيرة للغاية.

إن هذه الملحمة البطولية الخالدة عالجت قضايا إنسانية عامة، كمسألة الحياة والموت، وما بعد الموت، والخلود. وصورت تصويراً بارعاً ذلك الصراع الأزلي بين الموت والزوال المقدرين، وبين إرادة الإنسان المغلوبة في محاولتها التشبث بالوجود والبقاء، فهي بذلك تمثل التراجيديا الإنسانية المتكررة.

لقد شغلت الملحمة بفكرة أو موضوع أساسي هو البرهان بأسلوب مؤثر على حتمية الموت حتى بالنسبة إلى بطل مثل "جلجامش" ثلثاه من الآلهة الخالدة وثلثه الباقي من مادة البشر الفانية، لأن الآلهة، كما جاء في الملحمة، "قد استأثرت بالحياة، وقدرت الموت من نصيب البشرية"، ولكن أليست هذه البديهيات لدى

جميع البشر؟ أليست حقيقة الموت البديهية لا تزال تتكرر ليل نهار في حياة الإنسان منذ أن وجد على هذا الكوكب قبل نحو مليون عام؟ إذاً فما وجه الجدة والأصالة في عرض مسألة الموت والحياة، والبرهنة على حتمية الموت في ملحمة جلجامش؟

الواقع أن هذه الظاهرة المتكررة المعادة، رغم كونها تبدو من الأمور المسلم بها والبديهيات لدى العقل الواعي والتفكير المنطقي والواقعي، إلا أنها لا تزال لغزاً محيراً بالنسبة لأحاسيس الفرد ورغباته وغرائزه الحياتية، تأخذ بلب الفرد، وهي موضع حيرة في قرارة كل نفس بشرية، وتكون شغل الإنسان الشاغل وهو على أبواب الشيخوخة. إنها تتمثل على هيئة صراع بين إرادة الإنسان بتمسكها بالحياة وبين تلك الحقبة البديهية بالنسبة للعقل والمنطق، وفوق هذا فإن الملحمة تسمو على مجرد البرهنة على هذه الحقيقة البديهية، فهي تتناول مسألة أخلاقية كبرى شغلت عقل الإنسان منذ أقدام الحقب والعهود: فإذا كان الموت محتماً، وإذا تعذر على الإنسان نوال الحياة الخالدة سواء كان بالتغلب على الموت أو بوجود حياة أخرى بعد الموت، وهي فكرة لم تكن واضحة لدى العراقيين القدماء، فما ينبغي على الفرد فعله في هذه الحياة؟ أيرفض هذه الحياة ويهرب منها ويطلق هذا العالم ويفنى في "النرفانا"؟ أم يسلك سبيل اللذة والتنعم في هذه الحياة كما جاء على لسان صاحبة الحانة؟ أم يتقبل تحدي قانون الحياة ويذعن لما ليس منه بد، فيضبط النفس ويقوم بتلك الأعمال التي تخلده بعد حياته كما فعل بطل الرواية جلجامش بعد رجوعه يائساً من مغامراته في سبيل الحصول على الخلود؟

إن هذه القضايا الكبرى تؤلف فكرة الملحمة الأساسية، وقد وضعت لها الحلول المنسجمة مع أنماط العقائد الدينية والظروف الاجتماعية وقانون الصراع القائم في ذلك المجتمع قبل أربعة آلاف عام، وذلك بالإقبال على هذه الحياة واستغلالها إلى أقصى حدود الاستغلال الفردي، وإتيان الأعمال التي تخلد الفرد، ولسان حالهم يقول "والذكر للإنسان عمر ثان".

هذا ولم ينفرد سكان العراق القديم باهتمامهم بمسألة الموت والحياة تلك، بل تناولتها آداب الأمم والأقوام في مختلف الحقب التاريخية، فنجدها متغلغلة في مآثر اليونان الأدبية؛ وفي الآداب العربية قصص طريفة عن أخبار المعمرين، وأخبار

عن كثير من الأبطال الذين ركبوا الأخطار وخاضوا المغامرات لحل مشكلة الخلود والبقاء.

وعلاوة على ذلك، فإن الملحمة على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية في تصويرها لنا تصويراً مؤثراً جوانب مهمة من حضارة وادي الرافدين، فهي للمهتمين والدارسين لتلك الحضارة منجم زاخر يستقى منه فهم أوجه ومقومات أساسية لأحوال العراق القديم قبل أربعة آلاف عام، فيقف على عقائد القوم الدينية، وآرائهم وأفكارهم في الحياة والكون، وأحوالهم الاجتماعية، والجوانب المثيرة من حياتهم العاطفية والعقلية وعلاقاتهم الاجتماعية وتركيب أقدم مجتمع متحضر في تاريخ العمران والتمدن البشري، كما يجد صورة رائعة عن البداوة المتاخمة لحضارة وادي الرافدين، وكيفية تدرجها إلى طور الحضارة، وفضائل وإيجابيات هذه الحضارة وسلبياتها، ونعني بهذه الصورة ما هو موجود في الملحمة في سيرة بطل الملحمة الثاني، وهو "أنكيدو" صاحب جلجامش.

إن أفضل ما يكشف لنا عن أثر ملحمة جلجامش في عقول أبناء الحضارات القديمة ذلك المدى الواسع الذي انتشرت فيه بالعالم القديم: فبالنسبة لسكان وادي الرافدين الأقدمين، لم يقتصر تداولها على سكان القسم الجنوبي والأوسط من العراق، وهو القسم الذي عرف كما ذكرنا باسم بلاد سومر وأكد، بل تسربت أيضاً إلى القسم الشمالي - بلاد نينوى، فقد وجدت نسخ كثيرة لها في حواضر العراق القديم من عهد ازدهار الحضارة البابلية في العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق.م). أما بالنسبة لبلاد آشور (نينوى)، فإن آخر نشرة كاملة لها وصلت إلينا وجدت نصوصها في خزانة مكتبة نينوى الشهيرة التي أسسها العاهل الفنان آشور بانيبال. وبالنسبة لمراكز الحضارات القديمة الأخرى، عثر الباحثون على نسخ من أجزاء ملحمة جلجامش في أقاليم نائية خارج الوطن العربي، مثل: الأناضول، موطن الحضارة الحثية، وقد دون بعض هذه النصوص باللغة البابلية القديمة؛ كما وجدت أيضاً ترجمات إلى اللغتين الحثية والحورية.

هذا عن الانتشار الواسع النطاق للملحمة عن هذا الطريق المباشر؛ أي الاستنساخ والترجمات المختلفة التي وجدت في مراكز الحضارات القديمة، ولكن

هذه الملحمة العتيدة قد أثرت كذلك في آداب الأمم القديمة وقصصها وملامحها بطرائق غير مباشرة، أي بالتأثر بأحداث الملحمة وقصصها، وفي مقدمة ذلك حادثة الطوفان الشهيرة التي شغلت من ملحمة جلجامش فصلاً مهماً بارزاً.

والبطل جلجامش نفسه انتقل اسمه إلى معظم آداب الأمم القديمة، أو إن أعماله نسبت إلى أبطال الأمم الأخرى مثل هرقل والاسكندر والبطل "أوديسوس" في الأوديسة اليونانية الشهيرة.

الحريات بدأت

في الوطن العربي

تميز الوطن العربي منذ أقدم العصور بدور ريادي مهم تجلى في جملة الإنجازات الحضارية التي شكلت لبنة أساسية في تطور الحضارة الإنسانية.

فبعد انتقال الإنسان القديم في مشرق الوطن العربي من عوالم العصور الحجرية القديمة، تمكن من الاستقرار، وقام ببناء القرى والمدن الأولى، وبذلك قام المجتمع المتحضر في أعقاب تلك الفترات الموغلة في القدم. وتجلت هذه التطورات في المراحل الأخيرة لعصور ما قبل التاريخ، ومرحلة بدء الكتابة والآداب (البرتولتريت)، ومن ثم مراحل العصور التاريخية.

لقد أقام الإنسان الرافدي المدن المتحضرة والدول القوية، وقام بتهيئة المستلزمات الكفيلة بدعم وتقوية وتواصل هذا المسار، فعمل على بناء المؤسسات الحكومية والهيئات العامة لتوطيد دعائم هذا المجتمع الجديد، وقام بإنشاء القوات المسلحة للحفاظ على الإنجازات التي حققها، ولصد أطماع القوى المعادية.

لقد تعمقت القيم والمفاهيم الديمقراطية في المجتمع، فكان النواب يبدون آراءهم فيما يتعلق بشؤون الدولة والمجتمع، وفي مسألة إعلان الحرب على الدول الأخرى، وفي إبرام المعاهدات والاتفاقيات الثنائية، وكانت تقرّ من قبلهم، وبذلك فإن سكان بلاد الرافدين القدماء سبقوا الإغريق في مجال تطبيق الحريات بأكثر من ألفي عام، فلم يشأ مثلاً الملك جلجامش إعلان الحرب على كيش إلا بعد طرح الموضوع في مجلسي الشيوخ والنواب.

وشهد العراق القديم قيام أسس ومقاييس وضعية، نظمت على أرضيتها علاقات الأفراد في المجتمع بعضهم ببعض، فأوجدت قوانين وتشريعات وضعية شكلت نقطة ارتكاز لتسيير مجتمع الدولة.

لقد وضع (أورنمو)، مؤسس سلالة أور الثالثة، قانون دولته في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد، وهو أول قانون مكتشف لحد الآن في تاريخ البشرية.

وبعد قرن من الزمن، فعل (بيلالاما) ملك أشنونة الأمر ذاته. وهذا حذو هذا الأخير بعد نصف قرن الملك (لبت عشتار) خامس ملوك سلالة إيسن.

وبعد هؤلاء أتى (حمورابي) سادس ملوك الدولة البابلية الأولى، بقوانينه الشاملة لجوانب المجتمعات القديمة، فكانت بحق تمثل تكاملاً قانونياً متبلوراً وناضجاً. وقد وضع الحثيون والآشوريون قوانين خاصة بهم.

إن قانون حمورابي كان قد ظهر قبل ظهور أقدم مجموعة من القوانين الإغريقية المعروفة حتى الآن: كقوانين مدينة كورتين في كريت بأكثر من اثني عشر قرناً من الزمن. لقد عثر على هذه القوانين في عامي 1884-1885م في موضع المدينة القديمة كورتين منقوشة على الواجهة الداخلية لأحد الأبنية، ويرقى تاريخ القسم الأعظم منها إلى القرنين السادس والخامس ق.م.

ولا ترتفع قوانين اسبارطة القديمة إلى المستوى الرفيع الذي بلغته قوانين العراق القديم، لا سيما أن اسبارطة لم تعرف عند نشأتها تدوين العرف وإعلانه في ساحات عامة (أي القوانين المدونة). وليست القوانين الاسبارطية المعروفة باسم المقنن (ليو كورج) الذي لم يعرف في البداية إلا اسمه من صنع هذا المشرّع حقاً، وإنما وضعت على مر الفترات، وصار منها ما نعرفه بالقوانين اليونانية الاسبارطية المدونة.

ولا نعرف حتى عن قوانين (دراكون) الصادرة في عام (621ق.م) إلا النزر اليسير الذي وصلنا عن نسخة متأخرة من عامي (409-408ق.م). وقد أجري بعض التعديل على هذه النسخة، فأضيفت إليها فقرة خاصة بالجريمة، واقتباسات أخرى من القانون القديم، وبقيت هذه القوانين معمولاً بها في أثينا حتى القرن الثالث ق.م.



مشهد تفصيلي للجزء العلوي من مسلة قوانين
حمورابي الملك السادس لسلالة بابل الأولى.
ويبدو حمورابي واقفاً أمام إله الشمس والعدالة

بينما لم ينس المشرعون في بلاد الرافدين قبل ذلك بقرون زمنية مختلفة، سرد حالات الإجرام، وتثبيت العقوبات الخاصة بالمجرمين. ومن ناحية أخرى لم تكن جميع القوانين في مشرق الوطن العربي القديم تتسم بالقسوة والعقوبات الصارمة كما هو الحال في قوانين دراكون التي قال عنها أرسطو: "لقد اقتبس الكثير من قوانين دراكون حتى في ظل دستور دائم على الرغم من أن هذه القوانين لا تذكر إلا بالقسوة والعقوبات التي لا حد لها".

وليست القوانين الرومانية القديمة المعروفة باسم (الألواح الاثني عشر) والتي قننت في حدود عامي (451-450ق.م)، أو قوانين (مانكيان) في عهد القيصر تراجان (115-117ق.م)، أو قانون (هادريان) المكتوب على قاعدة نصب عثر عليه في تونس مكتوباً بالأحرف اللاتينية، بمرتبة قوانين العراق القديم.

لقد أصدر ملوك بلاد الرافدين قوانين منظمة واضحة المعالم والمؤشرات، بحيث لم تدع مجالاً لاجتهادات القضايا الشخصية. وعلى سبيل المثال، فإن قوانين ملك بابل حمورابي، منعت في إحدى موادها القاضي من التراجع عن حكم أصدره، وفرضت عليه في حالة إقدامه على ذلك عقوبة صارمة هي إقصاؤه من المحكمة أمام زملائه القضاة ورفع الحصانة القضائية عنه. وعلى النقيض من ذلك جاءت أكثر القوانين الإغريقية والرومانية مسهبة في جملها، وتفتقد النظام والتنسيق اللذين تميز بهما القانون الرافدي القديم.

وإذا كانت هذه القوانين اليونانية والرومانية قد صدرت بصورة عامة في عدة لوائح معلنة ثبت عليها العرف في عصور مختلفة، فإننا نرى قوانين الوطن العربي القديم ولاسيما قانون حمورابي، قد وضعت دفعة واحدة، ولم يعمل بها في عهده لوحده، بل عمل بها كذلك في عهود خلفائه، إذ نقل المشرعون اللاحقون محتويات كثير من موادها إلى قوانينهم، وقام بوضع قوانين الوطن العربي القديم، وقوانين العراق القديم على وجه الخصوص، مستشارون مختصون في القصر، فجاءت معللة ومبوبة، علماً بأن القوانين الإغريقية والرومانية في معظمها كانت على شكل أوامر ومراسيم وقرارات قيصرية.

لقد كانت أقوام المناطق العربية القديمة أسبق من الإغريق في بناء هيكل السلطة التنفيذية التي تمثلت وتجسدت في يد الملك والكتاب والوزراء ونوابهم، وفي يد القوات المسلحة كالجيش والشرطة والحرس. وكذلك أحرزت تقدماً واضحاً على الإغريق والرومان في المراسلات الدبلوماسية وتنظيم البروتوكولات وعقد الأحلاف وإبرام الاتفاقيات الثنائية ومعاهد ومواثيق الصلح الدولية.



وإذا كانت بعض القوانين الإغريقية قد حددت ملكية الأفراد للأراضي، وكان القانون الروماني الصادر في عام 111م قد نظم مسألة توزيع الأراضي الزراعية على المواطنين، فإن العاهل السومري (أوروكاجينا) كان قد فعل أمراً يشبه ذلك في القرن الخامس والعشرين ق.م، عندما قام بإعطاء الأراضي للمعابد والأفراد.

ولم يسبق الإغريق والرومان الوطن العربي في تحديد الأسعار وتثبيت الأجور، فالقوانين التي شنّت سواء في عهد (ديوكليتيان) في عام 301 فما بعده، حتى القرن

السادس الميلادي، لا تصل إلى نظيرتها من قوانين الشرق العربي القديم وقوانين العـراق القـديم تحديـداً، لا سيما أنها كانت معروفة قبل القوانين الرومانية بأكثر من ألفي سنة.

وقد اعترف (هيرودوت) نفسه أن الهلنستيين مـدينون بـالكثير للـشرق القـديم، ولاسـيما لأرض بابل التي أخذوا عنها الكثير والعديد من الإنجازات الحضارية المهمة.

إن ذلك ليدل دلالة قاطعة عـلى مـدى نـضج وعمـق وشـمولية القـوانين القديمـة في الـوطن العربي الموغلة في العراقة والقدم، والتي تعتبر بمثابة أساس ارتكزت عليـه فـيما بعـد، ليـست قـوانين المنطقة فحسب، بل قوانين وتشريعات العالم المتحضر.

لمحات من تاريخ

الحضارة الآشورية

في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد قامت جماعات من العرب القدماء بهجرات متتالية منتظمة من الجزيرة العربية إلى الهلال العربي الخصيب على هيئة موجات متتالية، وقد أدت الهجرات دوراً رئيساً في تغيير مجرى الكيان الحضاري وتطوره في العالم القديم.

ومن هذه الهجرات (الأكاديون، الكنعانيون، العموريون، الآشوريون، الآراميون، المصريون). هؤلاء اتجهوا باتجاه العراق وسورية وفلسطين ولبنان ومصر وشمال إفريقيا. وكان نهر الفرات هدف الأقوام العربية القديمة التي اتجهت إلى العراق وسورية؛ أما ناحية نهر دجلة فكان أول من قصدها من الأقوام العربية القديمة جماعات عبرت نهر الفرات فتوغلت في المنطقة ما بين الرافدين دجلة والفرات، ثم استقرت في حدود الألف الرابع وأوائل الألف الثالث ق.م في المنطقة الشمالية من العراق بين الموصل والشرقاط، وكانت هذه المنطقة تعرف باسم (سوبارتو)، فأسست هذه الجماعات مدينة هناك صارت تعرف باسم (آشور) نسبة إلى الإله آشور، كما صارت الجماعات التي استقرت في هذه المنطقة تعرف بالآشوريين، وأخيراً صارت المنطقة بأسرها تعرف باسم (بلاد آشور) أو (بلاد نينوى) فيما بعد، نسبة إلى المدينة الآشورية الثالثة (نينوى) التي تقع شمال مدينة (آشور).

وفي منطقة آشور أقيمت إمارة صغيرة مؤلفة من مدينة آشور وما حولها على نسق دويلات المدن في جنوبي العراق. وكانوا على اتصال مستمر مع هذه المدن التي

أخذوا عنها فن النقش والعمارة والكتابة. واعتمدت زراعتهم على الإرواء الديمي، أي على هطول الأمطار.

وكان الآشوريون يتكلمون فيما بينهم بلهجة من لهجات أقوام الجزيرة العربية القديمة قريبة من اللهجة التي يتكلم بها الأكاديون، وكتبوا لغتهم الآشورية بالخط المسماري الإسفيني.

لقد تطورت حياة الآشوريين فيما بعد، وأسسوا المدن الكبرى إضافة إلى مدينة آشور، مثل: النمرود، ونينوى، ودور شروكين. وأرسوا دعائم إمبراطورية كبرى خضع لها الشرق القديم.

بنت الدولة الآشورية (4000-612ق.م) نظامها على أساس حربي بالنظر لموقع بلاد آشور الذي يجعلها معرضة للهجمات من جميع أطرافها، وقد علّمت الحرب الدائمة مواطني آشور كيف يحمون حدودهم ويتحينون الفرص للاستقلال في مدنهم عن حكم الدول التي كانت فتوحاتها تخترق أراضيهم بين الحين والآخر.

لقد كان لدولة آشور جنود غير نظاميين، ثم حل محلهم جيش منظم وهو القوة الرئيسة للدولة الآشورية، وتطورت هذه الدولة إلى تنظيم ثابت محكم لم تؤثر فيه المنافسات والمنازعات التي كانت سائدة بين الدويلات، حتى صار في استطاعة مملكة آشور أن توجه قواها الموحدة كافة صوب القضاء على أعدائها الخارجيين.

وساعد الآشوريين على ذلك أنهم كانوا قد بدؤوا باستعمال الخيل والعجلات في جيشهم، ثم أصبحوا أعظم قوة حربية ضارية شهدها التاريخ القديم.

وكانت التجارة رائجة من بلادهم وإليها، فكانت قوافل التبادل التجاري تمتد إلى آسيا الصغرى. وقد توثقت صلاتهم بالشعوب الأخرى فازدادوا قوة وثراء.



مسلة الملك الآشوري شلمنصر الثالث - ارتفاع ٢.٠٢م - كالخ - النمرود.





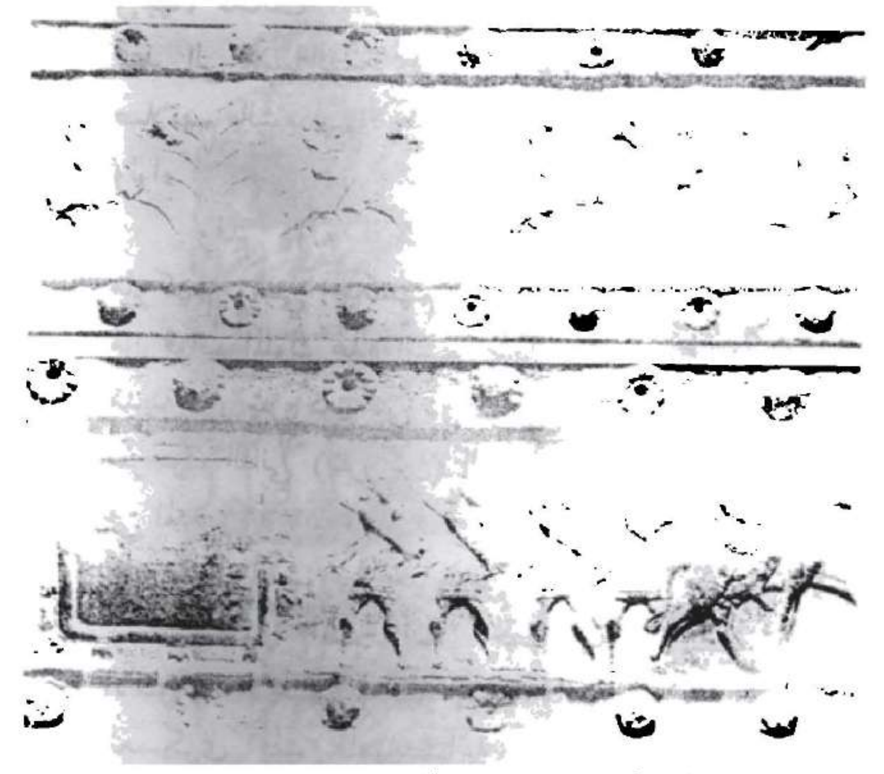
وقد دوّن الآشوريون أسماء ملوكهم وسني حكمهم. ووجد عدد من قوائم الملوك هذه، اشتهرت منها قوائم مدينة دور شروكين التي دونت في عهد سرجون الثاني (شروكين) الذي حكم في المدة (722-705ق.م) ابتداء من أقدم الملوك الآشوريين حتى زمن حكمه.



جدارية آشورية من خورسيباط (دور شروكين)

جدارية آشورية من قصر سرجون الثاني - خور سيباط (دور شروكين)

ومن المنجزات الحضارية الآشورية الأخرى، إضافة إلى الجانب العسكري، قاموا بصناعة الآلات المعدنية النحاسية، وتوصلوا إلى استعمال البرونز في الألف الثاني ق.م بكثرة، وبدؤوا منذ ذلك الحين يصنعون أسلحتهم وذخائرهم وأدواتهم من هذا المزيج، ثم استعملوا بعد ذلك الحديد في صناعة الأسلحة، إذ تعلموا صناعته من الحثيين الذين سبقوهم في إتقان استخلاصه وصناعته، حيث كانوا يستخرجونه في الشمال الشرقي من آسيا من مناجمه، ونشروا استعماله في جميع بلاد الشرق الأدنى منذ القرن الثالث عشر ق.م، وهذا ما مكنهم من التوسع في القرون التالية.



جدارية آشورية من قصر آشور بانيبال في نينوى

وقد ساعدتهم فتوحاتهم على توسيع نطاق تجارتهم، فحذق تجارهم أساليب التجارة، وعاش كثير من التجار في محطات ومحلات أنشؤوها في عدة أماكن في جنوب شرقي آسيا الصغرى.

واهتم الآشوريون بالآداب والفنون الجميلة، فنظموا المقطوعات الأدبية الرائعة، وأتقنوا فن النحت والتصوير، وانفتحوا على الثقافة البابلية، ولا أدل على اهتمامهم بالناحية الثقافية والأدبية مما تركوه من تراث حضاري في خزائن الكتب

(ألواح الطين) في مكتبة نينوى الملكية التي أسسها العاهل الفنان آشور بانيبال (669-629ق.م).

وصفوة القول إن الآشوريين تركوا لمن خلفهم من أقوام جاءت بعدهم تراثاً حضارياً مجيداً، إضافة إلى كونهم يتصفون بالشدة والصلابة والعنفوان في الحروب.

نينوى

مثلما تحدثنا في المحور السابق، فإن الآشوريين تركزوا في شمالي بلاد الرافدين بين الموصل والشرقاط في حدود الألف الرابع قبل الميلاد، وكانت هذه المنطقة تعرف من قبل باسم سوبارتو Suparto، فقامت هذه الجماعات بتأسيس مدينة آشور نسبة إلى الإله آشور، ثم صارت تعرف باسم بلاد آشور Assyr، ثم بلاد نينوى Niniveeh فيما بعد نسبة إلى العاصمة الآشورية الثالثة.

كان الآشوريون يتحينون الفرص للاستقلال في مدنهم: آشور، النمرود، نينوى، دور شروكين، عن حكم بعض أمرائهم في العهد الكوتي، وخضعوا ثانية لملوك سلالة أور لحكم الأكاديين، ثم استقل بعض أمرائهم في العهد الكوتي، وخضعوا ثانية لملوك سلالة أور الثالثة، ثم ظهر بينهم ملوك أقوياء استقلت على أثر ذلك دولتهم في ذلك العهد. وبعد ظهور حمورابي، الملك السادس لسلالة بابل الأولى، قام بالقضاء عليها، ثم تجدد استقلال بلاد آشور في عهد الملك تجلات بليسر الأول، ثم قويت الدولة الآشورية وضمت إليها بابل وأرجاء أخرى أيضاً.

ونظراً لكون المرحلة الزمنية للدولة الآشورية طويلة ومتعددة الأحداث، فقد ارتأى علماء التاريخ القديم والآثار تقسيمها إلى ثلاث مراحل، وهي: العصر الآشوري القديم، العصر الآشوري الوسيط، العصر الآشوري الحديث.

يبدأ العصر الآشوري القديم منذ فجر التاريخ الآشوري وحتى نهاية حكم سلالة بابل الأولى في الفترة (4000-1594ق.م)، ثم خضعوا لحكم سلالة أور الثالثة، ويعد ذلك أخذ استقلال آشور يتصاعد حتى بلغ ذروته في عهد

(إيلوشلوما) الذي كان معاصراً لمؤسس سلالة بابل الأولى، والـذي حكـم في حـدود (1894-1881ق.م). وفي عهد (شمسشي أداد) في الفترة (1815-1782ق.م) تم فتح العديد من المـدن في وسـط العـراق، وفي أواخر حكمه ظهر حمورابي فقام بالقضاء على استقلال آشور.

أما العهد الآشـوري الوسـيط فيبـدأ منـذ نهايـة مملكـة بابـل الأولى في حـدود عـام 1594ق.م، ويستمر أثناء حكم الكاشيين، وينتهي في حدود عام 199ق.م. وبقيت بلاد آشور في هـذه الفـترة تحـت حكم البابليين إلى حين سقوط بابل على أيدي الحثيين. ومن أشهر ملوك العهد الآشوري الوسيط (آشـور أوبلط الأول) الذي حكم في الفترة (1465-1330ق.م)، وقد قـام بالقـضاء عـلى الدولـة الميتانيـة، وضـم ممتلكاتها إلى الدولة الآشورية، وكان على صلات جيدة مع الحثيين والفرعون المصري أخناتون.

ومن ملوك هذا العصر (شلمنصر الأول) الذي حكم في الفترة (1274-1245ق.م)، واشتهر ببنـاء مدينة النمرود "كالخ" كعاصمة جديدة بعد مدينة آشور. ثم جاء بعده العاهل (توكلتي نينورتا) الـذي قام بمحاربة الكاشيين وفتح بابل. ومن الملوك الأقوياء في هذا العهد (تجلات بليـسر الأول) الـذي حكـم في الفترة 1115-1077ق.م)، وقام بالاستيلاء على نائري وأرمينيا ووصل إلى البحر الأسود شمالاً، ثم اتجه غرباً نحو سواحل آسيا الصغرى وفينيقيا، ثم استولى على بابـل سـنة 1100ق.م، فـتم لـه حكـم الـشرق الأوسط.

أما العهد الآشوري الحديث فيستمر في الفترة 912-612ق.م. وقد جـاء هـذا العهـد بعـد فـترة انتكـاس مؤقتـة شـهدتها الدولـة الآشـورية في أواخـر العهـد الآشـوري الوسـيط. ومـن أشـهر ملـوك الإمبراطورية الآشورية الأولى الملك أداد نيراري الثـاني الـذي حكـم في الفـترة 912-891ق.م. وقـد اهـتم بتقوية الجيش، وأخضع بعض الأقاليم المجاورة، ثم تحالف مع بابل. تبعه في الحكم ابنـه (آشـور نـاصر بال الثاني) وحكم في الفترة 844-858ق.م، وقد أوغل في فتوحاته في الجبال الشمالية والـشرقية، ووطـد الأمن وحارب الآراميين وفتح دمشق، وقد وجدت لهذا الملـك في مدينـة النمـرود مـسلة كبـيرة نقـشت بكتابات عن أهم أعماله، وهي اليوم من معروضات متحف الموصل.

ومن ملوك هذا العهد شلمنصر الثالث الذي ورث عرش أبيـه وحكـم في الفـترة 858-824ق.م. وقد حارب هذا الملك في سورية وفلسطين، وقضى على التحالف الآرامي، وقد تـولى الحكـم بعـده ابنـه (أداد نيراري الثالث) من زوجتـه سـمير أمـيس (شـيمورإمات). وقـد ذكرتـه المـصادر الإغريقيـة باسـم (نينوى). حكم في الفترة 811-781ق.م. وتولى الحكم من بعده ابنه شلمنصر الرابع، ومن ثم آشور دان الثاني، ثم أخذت الأحوال تتدهور قي الإمبراطورية الآشورية: فقد حدثت في النمـرود حركـة تمـرد تـولى بعدها تجلات بليسر الثالث مقاليد الحكم، فأعاد للدولة سابق مجدها وأنقذها من الضياع، وكان ذلك بداية لعهد الإمبراطورية الآشورية الثانية.

الجنح الأسطوري في نينوى





سمير أميس (شبمورامات) ـ نينوى

ومن أشهر ملوك هذا العهد شلمنصر الخامس الذي اتخذ لقب ملك آشور وبابل، وسرجون الثاني الذي حكم في الفترة 722-705ق.م، وقام ببناء عاصمة جديدة وهي دور شروكين منتقلاً من نينوى. ثم تولى الحكم ابنه سنحاريب الذي لم يشأ الإقامة في الأبنية التي أنشأها والده في دور شروكين عائداً إلى العاصمة نينوى.

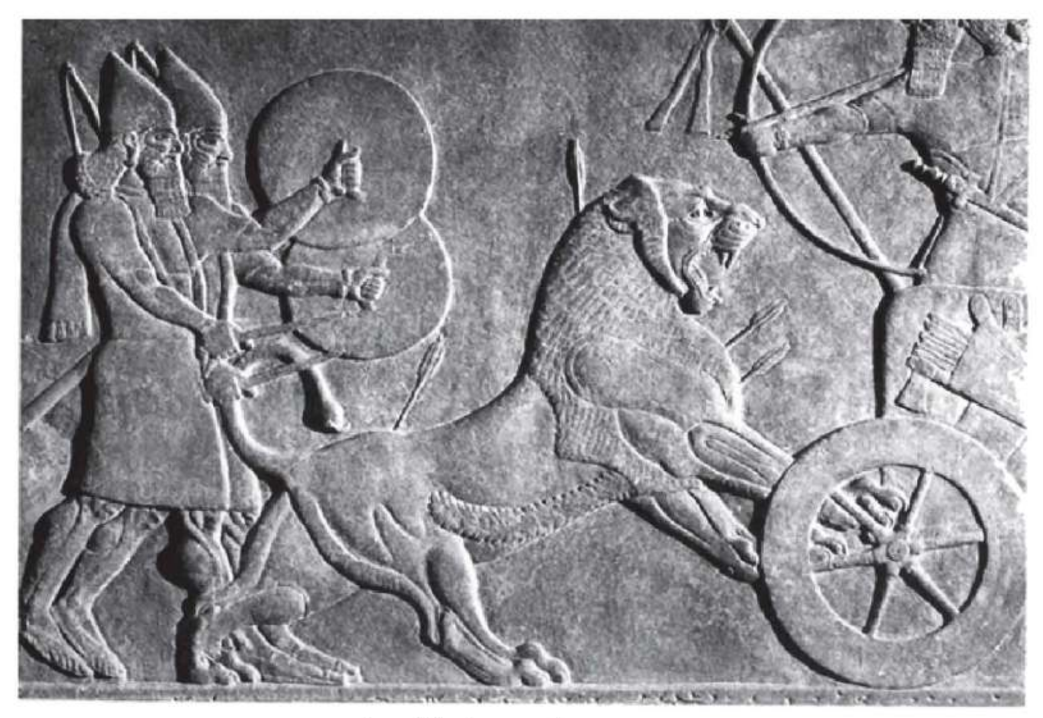
وعندما ثارت بابل عليه جهز حملة حربية عليها، فطرد مردوخ بلادان ونصب عليها موالياً لحكمه، ثم أخضع دويلات المدن الفينيقية، وقام بشن حملة أخرى لتأديب بابل وفتحها، وعيّن أحد أولاده والياً عليها. وبعد اغتيال سنحاريب استلم حكم بلاد نينوى ابنه (أسرحدون) في الفترة 681-669ق.م)، وسار على سياسة المصالحة مع بابل، وعين أحد أولاده (شمش شم أوكن) والياً عليها، وحارب في الجنوب فقضى على حركة مردوخ بلادان. وفي عام 676ق.م توجه أسرحدون نحو سورية وساحلها، وقام بفتح المدن الداخلية والساحلية كافة وأخضعها لسيادة نينوى، ثم قام بغزو مصر، وحارب فرعونها طاهرقا عام 673ق.م، ثم غزاها مرة أخرى ففتح دلتا النيل ودخل (ممفيس) عاصمة مصر السفلى.

وقد عثرت السلطات الأثرية في تل النبي يونس في الموصل على بعض الآثار المصرية، وبينها كسر تماثيل كبيرة من حجر الديوريت الأسود للفرعون المصري

طاهرقا. وعند رجوع أسرحدون من حملة مصر نقش صورته في الصخور الجبلية اللبنانية قرب بثروتا (بيروت)

ثم حكم بعده ابنه العاهل الفنان آشور بانيبال في الفترة 699-629ق.م، وكان مولعاً بالآداب والفنون الجميلة. ويعود إليه الفضل في تأسيس مكتبة نينوى التي تعتبر أول مكتبة في تاريخ البشرية. يمثل آشور بانيبال عملية انتقاء السلطة للنصوص، فقد ضمت هذه المكتبة المنسقة معظم نصوص التراث القديم الذي جمع من أرجاء بلاد الرافدين كافة.

وعلى الصعيد الحربي: فقد حارب آشور بانيبال الأمراء المصريين، وفتح عاصمة مصر السفلى (ممفيس)، ثم لاحق الفرعون طاهرقا إلى مصر العليا ودحره وفتح (طيبة). أما في بابل فقد ذكرنا سابقاً أن أسرحدون عيّن ابنه (شمش شم أوكن) حاكماً على بابل. فلما تسلم أخيه (آشور بانيبال) الحكم في نينوى، قام بالتعاون مع أخيه في البدء، ولكنه تمرد ضده فيما بعد، فجرد آشور بانيبال حملة حربية واسعة النطاق، ففتح بابل عنوة عام 648ق.م ودمرها وأحرق أخيه وسط لهيب قصره، ثم هاجم الآراميين في سورية، وهاجم الفرس المجوس، وفتح مدينة الشوش (سوسة) كبرى مدن عيلام (عربستان).



من معروضات متحف الموصل

وتتركز اليوم آثار نينوى في موضعين أساسيين هما: (تل النبي يونس)، و (تل قوينجق) المطل على نهر الخوصر الذي يصب في نهر دجلة. وتضم مدينة نينوى الأثرية عدة أبواب رئيسة هي: باب آشور، باب نركال، باب الشمس (شمش)، باب المسقي، إضافة إلى السور الأثري العملاق المحيط بالمدينة القديمة. وتبرز قصور الملوك الآشوريين في عدة مواضع مع عدد هائل من التماثيل والأوابد الأثرية.

عملية انتقاء

السلطة للنصوص

شهد تاريخ الوطن العربي القديم قيام نشاطات وفعاليات في مجالات السياسة والأدب والفن والتاريخ والقانون والاقتصاد، باعتبار أن هذه الأنماط تمثل قمة الوعي الاجتماعي عبر حقب التاريخ. فبعد اكتشاف الكتابة في منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد تجلت عدة ممارسات إبداعية شهدها مشرق وطننا العربي الكبير. ومن أبرز صروح الثقافة والإبداع في التاريخ القديم مكتبة نينوى التي تعتبر أول مكتبة في تاريخ البشرية، والتي أسسها العاهل الفنان آشور بانيبال (699-929ق.م).

إن مكتبة نينوى التي أسست تلبية لإرادة رسمية، تمثل عملية انتقاء السلطة للنصوص، حيث ضمت المكتبة معظم التراث الكتابي السومري والأكادي والبابلي والعموري والآشوري.

في عام 1850م استؤنفت عمليات التنقيب الأثري في (تل قوينجق) في الموصل، فتم اكتشاف غرفتين صغيرتين من بقايا قصر ضخم، وكانت أرضية الغرفتين مليئة بكسر مبعثرة من أختام طينية مفخورة تبدو وكأنها من الآجر منقوشة بالكتابات، وقد تراكمت على الأرض بارتفاع قدم واحد أو أكثر. وكانت بعض القطع سالمة من الكسر في حين أن معظم القطع الأخرى قد أصبحت شظايا صغيرة، ولعل ذلك كان ناجماً عن انهيار القسم العلوي من البناءة. وكانت هذه القطع بأحجام مختلفة، وقد نقشت عليها كتابات مسمارية واضحة الحدود والمعالم، وكانت بعض هذه الكتابات دقيقة جداً بحيث يصعب تمييزها دون استخدام عدسات مكبرة، وقد تم جمع كميات كبيرة من الألواح الكتابية.

إن جملة القطع الطينية المفخورة تعود إلى المكتبة التي شيدها الملك المعروف باسم "ابن أسرحدون"، حيث لم يكن آشور بانيبال معروفاً آنذاك. وفي الفترة (1822-1854م) كان أحد المنقبين يقوم بأعمال التنقيب في منطقة نينوى الأثرية، وتسنى له أن يقوم بزيارة خاطفة لمنطقة التنقيبات في تل قوينجق في نينوى، حيث تم اكتشاف قطع الآثار الرائعة لتماثيل الأسود التي اصطادها آشور بانيبال، إضافة إلى اكتشاف مكتبة الملك الآشوري (مكتبة نينوى الملكية)، والتي يعتبر اكتشافها حدثاً ثقافياً هائلاً، لأن الألواح التي اكتشفت تعتبر المصدر الأساسي في دراسات العلوم الآشورية (الآشوريات). وقد تمت هذه الاكتشافات في الوقت نفسه الذي تمكن فيه علماء الآثار من حل رموز الكتابة القديمة التي تضمنتها هذه الألواح، والمعروفة بالكتابة المسمارية، حيث إن الخطوط المستعملة في هذه الكتابة تشبه المسامير إلى حد كبير.

لقد كانت هذه العلامات تكتب على ألواح من الطين الرطب بأقلام خاصة من القصب، أو بقطعة من الخشب ذات حافة مسطحة، أو بقطعة من عظم أو معدن ذي حافة مسطحة. وكان الكاتب يمسك القلم بيده اليمنى، ويمسك لوح الطين بكفه الأيسر. ومن الواضح أن الكتابة بهذه الطريقة لا يمكن أن تكون إلا على شكل خطوط مسمارية.

أما لغة الكتابة فكانت البابلية، أو أي لغة قديمة أخرى تتصل بهذه اللغات. وقد اتخذ الآشوريون القدامى اللغة الأكادية في كتاباتهم. وقد درست الكتابات التي احتوتها مكتبة آشور بانيبال في نينوى بدقة واهتمام، ونشرت في كتب ودوريات ومجلدات ضخمة.

ومن أبرز ما اكتشف من كتابات في نينوى، اللوح الثاني عشر من مجموعة اثني عشر لوحاً، تضمنت الأحداث الميثولوجية التي قام بها (جلجامش)، وبذلك أصبحت قصة الطوفان كاملة غير منقوصة. وهذا اللوح يتضمن الفعاليات التي قام بها جلجامش لزيارة أحد أسلافه، وهو شيخ طاعن بالسن كان قد تلقى تحذيراً من أحد الآلهة مفاده أن بعض الآلهة الآخرين قد عقدوا العزم على إفناء البشرية من خلال فيضان مدمر، واسم هذا الشيخ الذي ورد في القصة هو (أوتونابشتم) وقد

تمكن (أوتونابشتم) من بناء سفينة ركب فيها مع أفراد أسرته، وتسنى لهم النجاة من الغرق.

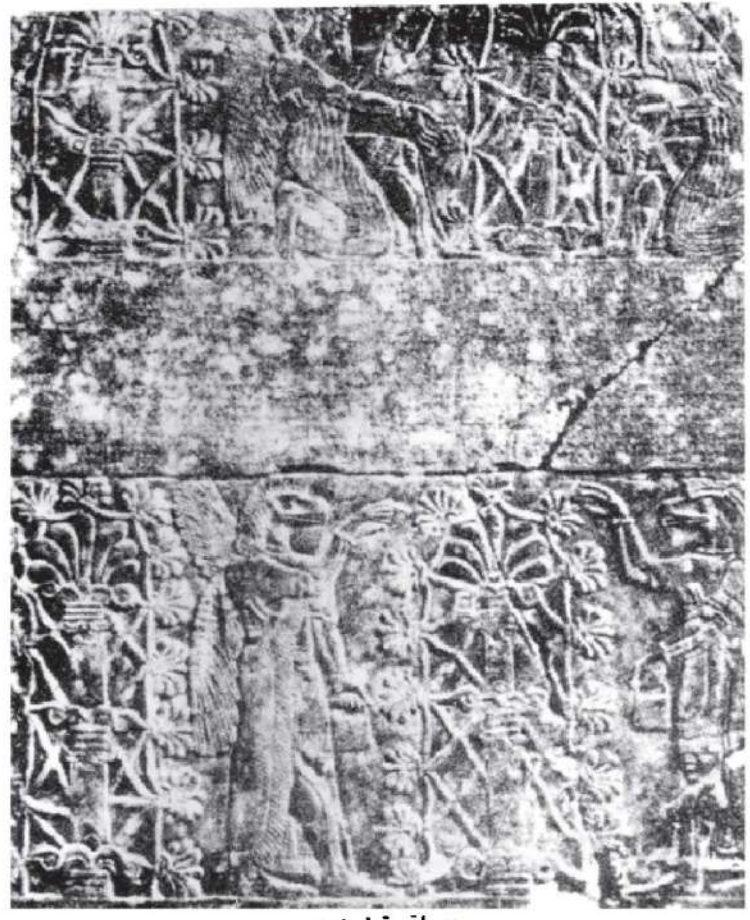
إن القصة التي دونت على هذا اللوح الذي عثر عليه في مكتبة آشور بانيبال في نينوى، هي المصدر الوحيد الذي اعتمدت عليه التوراة في إيرادها قصة الطوفان التي تضمها سفر التكوين.

إن مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال قد جمعت موادها من مصادر شتى، وقد كان آشور بانيبال مولعاً جداً بالدراسة والبحث العلمي والكتابة والمطالعة والفن. وكان يستمتع بالإصغاء إلى الكتب التي تقرأ عليه، أو التي يقرؤها هو بنفسه.

لقد دوّنت على كل لوح من ألواح موجودات مكتبة نينوى عبارة "ممتلكات آشور بانيبال ملك الجيوش، ملك آشور". كما ذيلت ألواح أخرى بعبارة "قصر الملك آشور بانيبال، ملك العالم، ملك آشور، المتوكل على (آشور) و (بلعبت) الذي أعاره (نبو) (ملك الحكم لله) أذناً صاغية، والذي ليس بين الملوك من أسلافه من استطاع أن يتعلم حكمه الإله (نبو) التي دونت بالمرقم على هذا اللوح. لقد دونت على هذه الألواح ما شئتُ قراءته وتعلّمه، ووضعتها في قصري، وكل من يأخذها من مكانها أو يزيل ما عليها من كتابة أو يضع اسمه مكان اسمي، عسى أن تلعنه الآلهة، وتستأصل ذريته من على وجه الأرض".

ومن جملة الكتب التي احتوتها مكتبة نينوى طرائف ومنوعات أدبية رائعة من مختلف الآداب الآشورية والبابلية، ومنها: ملحمة جلجامش التي تعتبر أولى الطرائف الفريدة في جميع الآداب وأصناف الميثولوجيا؛ وكذلك ملحمة الخليقة التي لا تقل عن أنباء الصراع المرير الذي دار بين (تيامات) التنين الأنثى و (مرودخ) البطل الإله الذي عبده الآشوريون في ذات الإله (آشور)، وهي مسرحية آلام من السنة الآشورية الجديدة. وهناك ملحمة الإلهة عشتار، الإلهة الحامية لمدينة نينوى، التي تتضمن قصة هبوطها إلى العالم الأسفل بحثاً عن حبيبها (تموز) الذي قتل إثر تعرضه لهجوم أحد ذكور الخنازير. وتعتبر هذه الملحمة من الأساطير التي وضعت لتفسير الظواهر الطبيعية، حيث فسر انتصار (عشتار) بعودة ضوء النهار، كما فسرت عودة (تموز) بعودة الربيع

بعد ليل الشتاء الطويل. وثمة قصص ميثولوجية أخرى تدور حول (أتانا) التي حملت إلى السماء على ظهر نسر، ثم سقطت بعد أن أعياه الطيران.



عباقرة نينوى

ومعظم بقية ألواح المكتبة تضمنت مواضيع أقل متعة: فثمة قوائم مطولة بأسماء النباتات، والظواهر الفلكية، والجبال والأنهار والأشجار، وعلامات الرياضيات، وأصول قواعد اللغة، وقائمة بالمترادفات ووصفات الأطباء.

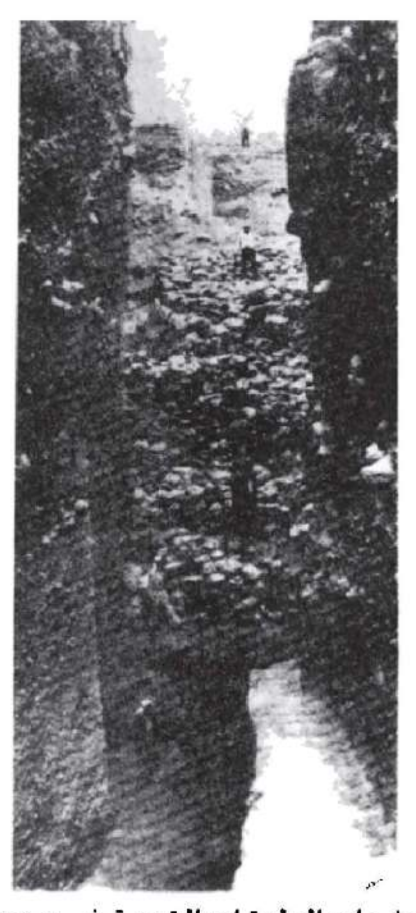
ولما اعتبرت هذه المكتبة ديواناً للقيود الرسمية، فقد احتوت على عدد من الرسائل الموجهة من الملك إلى الحكام والقادة العسكريين وإليه، وكذلك العقود والمستندات العقارية، وصكوك انتقال الملكيات على وجه التحديد.

والظاهر أن هذه المكتبة كانت في الأصل إحدى المباني التابعة لمعبد الإله (نبو) في النمرود، ولكنها نقلت إلى الموضع نفسه في مدينة نينوى، لأن (نبو) لم يكن إله الحكمة فحسب، بل كان إله الرسائل أيضاً.

آفاق فلسطين

منذ آلاف السنين أقام الإنسان الكنعاني الفلسطيني أهم وأنضج حضارة عرفتها البشرية على امتداد الساحل الكنعاني الفينيقي الممتد من الإسكندرية إلى غزة. فقد ظهرت القرى النطوفية الأولى في فلسطين القديمة، وظهرت تقنيات ناضجة لحضارة العصور الحجرية القديمة. وقد دلت التنقيبات الأثرية في أريحا على قدم وعراقة حضارة الكنعانيين القدامى سكان فلسطين الأصليين.

وبعد اكتشاف الكتابة في العراق، في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، وبدء التدوين، برزت التأثيرات الحضارية بين أقوام المنطقة العربية القديمة باعتبارهم ينتسبون لأصول واحدة. وتجلّت هذه التأثيرات في جملة مواضيع حضارية تتعلق باللغة والكتابة والعمران والصناعات والاختراعات.



حفريات الطبقات القديمة في مدينة القمر (أريحا) في فلسطين. ويبدو إلى الخلف السور الدفاعي الحجري

لقد استقر الكنعانيون القدامى (سكان فلسطين الأصليين) منذ أقدم العصور في بلادهم فلسطين (كنعان) وأرسوا دعائم حضارة متميزة أصبحت فيما بعد أساساً ومرتكزاً لحضارات العالم المتمدن. وكانت دويلات المدن الكنعانية الفلسطينية تقوم على أساس سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي يبلور نمط الحياة

الفلسطينية ويطبعها بطابع متميز نظراً لما تميزوا به من إنتاج حضاري على الأصعدة كافة.

لقد كان النظام السياسي الفلسطيني القديم يقوم على أساس (الدولة - المدينة)، حيث برزت عدة دويلات مدن كنعانية لها نظامها وسورها المحيط بها والآلهة التي تميزها، ومن أهم دويلات المدن الكنعانية الفلسطينية القديمة:

القدس (يبوس)، وأريحا (يريحو) أي مدينة القمر، ونابلس (شكيم)، وعكا (عكو)، وغزة (مدينة الإله داجون)، ورأس الناقورة (سكالاتيروروم)، وبيسان (بيت الإله شان)، وتل الدوير (لخيش)، وغيرها. وإن أكثر أسماء المدن الفلسطينية القديمة تنسب كما هو ملاحظ إلى أسماء الآلهة الكنعانيين الوثنيين قبل ظهور الديانات بآلاف السنين، مما يؤكد على عروبة فلسطين في التاريخ القديم.



بئر صفدي ـ بئر السبع ـ بيوت تحت الأرض
(النصف الثاني من الألف الرابع ق.م ـ فلسطين)

لقد قام الفلسطينيون بتوطيد دعائم الحضارة القديمة في العالم القديم (آسيا، أوروبا، إفريقيا)، ووصلت تأثيراتهم الحضارية إلى عموم بلدان البحر الأبيض المتوسط وشبه جزيرة إيبريا. وقد صنع الكنعانيون السفن، وأنشؤوا الأساطيل البحرية العملاقة، ونشطوا في مضمار التجارة، وقاموا ببناء القصور والأبهاء، وصنعوا الأدوات الفخارية والزجاجية، واخترعوا دولاب الفخار، واخترعوا نظام الحساب والرياضيات، وصنعوا الأصباغ المختلفة، ولاسيما ذات اللون الأرجواني. ويعود لهم الفضل في اختراع أول أبجدية عرفتها البشرية، حيث اختزلت هذه الأبجدية الخطوط المسمارية في وادي الرافدين، والخطوط الهيروغليفية في وادي النيل، وأصبحت أساساً لخطوط العالم المتمدن فيما بعد.

ولم يقتصر استقرار الكنعانيين الفينيقيين منذ أقدم العصور على أرض فلسطين فحسب، بل استقروا في الأماكن الساحلية العربية لحوض البحر الأبيض المتوسط في بقية مناطق الساحل السوري في تل رأس شمرا (أوغاريت) وبيروت (بئروتا) وجبيل (بيبلوس) وصيدا (صيدون)، وكذلك في مدينة قرطاجة التونسية نظراً للنشاط التجاري الكنعاني السائد في ذلك الحين.

إن الاسم القديم لبلاد فلسطين هو (بلاد كنعان)، وقد أطلق الإغريق على سكان السواحل الفلسطينية تسمية (فينيقيين). أما سكان المناطق الداخلية فكان يطلق عليهم تسمية (يبوسيين). وفي غمرة مجد الكنعانيين أقاموا هذه الحضارة الناضجة والمتكاملة في المجالات كافة.

ونحو الألف الأول قبل الميلاد ينحرف بعض الموسويين وينشقون عن موسى في مصر، ويغادرون شرقاً باتجاه سيناء، ويقبعون هناك فترة مرتبكة، ثم يجمعون أشلاءهم ويستولون بالقوة والإرهاب على بعض الدويلات الكنعانية الفلسطينية المسورة، ومن ضمنها: تل الدوير (لخيش)، ومدينة القمر (أريحا) التي سبوها وأحرقوها تنفيذاً لمنطلقاتهم العدائية. وبرغبتهم في تأسيس ملك لهم أسوة ببقية الدويلات الكنعانية الوثنية، فقد تأثروا بالسمات الوثنية للكنعانيين (سكان فلسطين القدامى)، وأقاموا دويلتين في مدينتين فقط هما: القدس والسامرة، لفترة زمنية ضئيلة على حساب الشعب العربي الكنعاني الذي هو موجود في بلاده منذ أقدم العصور.

ويقوم الجيش الآشوري في نينوى بتجهيز حملة حربية واسعة النطاق دكت معاقل السامرة منذ آلاف السنين، ولم يكن لليهود أي وجود بعد.

وقد أسقطت دويلتهم الهزيلة، وألحقت فلسطين القديمة بالدولة العربية الآشورية. وبعد فترة قام الجيش البابلي بشن حملة حربية أيضاً على القدس في عهد نبوخذ نصر الثاني، أحد ملوك العهد البابلي الحديث، فقام بتحرير القدس، ودمر هيكل سليمان المزعوم، وأسر عدداً من اليهود. وفي مرحلة الأسر قام اليهود بكتابة توراتهم الحالي، والذي يسمونه بالعهد القديم، وضمنوه قصصاً وأساطير لا أساس لها من الصحة والواقع منطلقين من ادّعاءات زائفة وغيبيات ميتافيزيقية وطلاسم

خرافية لتبرير احتلالهم لأرض فلسطين وممارسة العدوان ضد شعبنا العربي الفلسطيني.

وإبان العهود الرومانية تمرد اليهود العائدون من الأسر، وأرادوا أن يقبعوا في أرض العسل واللبن، ويعيدوا بناء ما يسمى بهيكل سليمان، ولكنهم فوجئوا بعدة ضربات شنها الإمبراطور الروماني (هادريان) الذي جعل من مدينة القدس قاعاً صفصفاً، وقام بتدمير ما تبقى من هيكل سليمان المزعوم. ومنذ ذلك الحين عاشوا فترة شتات حتى قيام الكيان الصهيوني عام 1948م بدعم من أمريكا وبريطانيا وفرنسا أعداء الوجود العربي.

وهكذا تتضح لدينا معالم الصورة كون فلسطين عربية منذ فجر التاريخ. وقد سكنها العرب الكنعانيون منذ فترات موغلة في القدم، وأرسوا دعائم حضارة لها تأثير بالغ وإشعاع متميز رفد الحضارة الإنسانية بأهم المرتكزات والأسس.

تاريخ العلوم

الرافدية القديمة

اكتشفت الكتابة لأول مرة في تاريخ البشرية في العراق في الألف الرابعة قبل الميلاد. وتطورت الكتابة السومرية في الألف الثالث ق.م إلى أن تكاملت وتركزت. وفي بداية الألف الثاني ق.م تحولت من نحو 2000 علامة إلى 500 علامة. وأصبحت الكتابة في العهد الآشوري والبابلي تستعمل نحو 400 إلى 350 علامة مسمارية. والكتابة المسمارية ككتابة مقطعية أعطت المجال والإمكانات ليس للتعبير عن اللغات القديمة فحسب، بل للغات الأخرى كافة.

وأخذت العلامات التي تتميز بالكثافة والتعقيد تختزل وتتبسط مع مرور الزمن، إلى أن أصبحت الكتابة في عهد نبوخذ نصر ملك بابل في العهد البابلي الحديث تختلف اختلافاً كلياً عما كانت عليه في عهد حمورابي الملك السادس لسلالة بابل الأولى.

كان تعلم الكتابة المسمارية المعقدة يتحقق بالمران الدائم والاستمرار. وكانت تدرّس اللغة القديمة وأساليب الكتابة في المدارس. وأما العلوم الأخرى فكانت لا تدرس في المدارس العامة، بل في مدارس خاصة يمكن اعتبارها بمثابة معاهد أكاديمية تقدم للطلاب العلوم والمعارف، وتقع في مدن كبيرة مثل أور ونفر وبابل وآشور ونينوى.

وكانت المدارس الخاضعة للمعابد تدرّس علوم اللاهوت والفلك والتنجيم. أما المعاهد المستقلة أو الخاضعة للدولة، فكانت تدرس العلوم البحتة مثل الطب والرياضيات والجيولوجيا. وكانت الفيلولوجيا "علم اللغة" تدرس كأساس لتلك العلوم، حيث يجري تحليل اللغة السومرية القديمة وبحثها، وهذا ينطبق على رؤاهم

ونظرتهم إزاء الكون. وقد سهل هذا التحليل عمل أقوام الجزيرة العربية كالأكاديين والعموريين والآشوريين، حيث تمكنوا من معرفة قواعد اللغة السومرية، وكانت الفهارس التي تركوها تحتوي على مجاميع الأشياء حسب فصائلها، مثل أسماء الآلهة والبلدان والمدن والأنهار، مع مختلف أنواع الحيوانات والنبات والأحجار والمنتوجات التي تنتج عنها.

وبالنسبة إلى علم التاريخ، فإن السومرين كانوا يدونون أحداثهم التاريخية في قوائم يعددون فيها أسماء وأعمال الملوك والمدن. وكانت بعض الحقائق التاريخية تتلاشى في ضباب الميثولوجيا والأساطير. وقد عاش السومريون من ثلاث إلى خمس مراحل حكم وتذكر معظم المدونات الحروب والانتصارات وبطولات بعض الملوك أمثال سرجون الأكادي وحفيده نارام سن. وكانت الحقائق والأساطير تتداخل مع بعضها. وقد استمر البابليون والآشوريون على هذا النسق مع تأكيد الأعمال والإنجازات التي قاموا بها في عهود الاستقرار: كبناء الأبهاء والأسوار والقصور.

وكان علم الجغرافيا لا يتعدى كونه علماً مساعداً. وكانت بعض مبادئ هذا العلم تدرس في المدارس، حيث تؤكد وتصور الصورة الدينية للعالم التي تصورها السومريون والبابليون. لقد كانت الأرض بالنسبة للبابليين أشبه بقرص دائري يحيطه النهر مع ثمان جزر غير كريمة؛ وكانت بابل تقع على مركز الأرض. وبالإضافة إلى ذلك كانوا يملكون خرائط غير عملية للمدن والأنهار والجبال. وهذه الخرائط والمصورات تعتبر لاهوتية بالدرجة الأولى، حيث تصور نظرتهم إلى الكون والعالم.

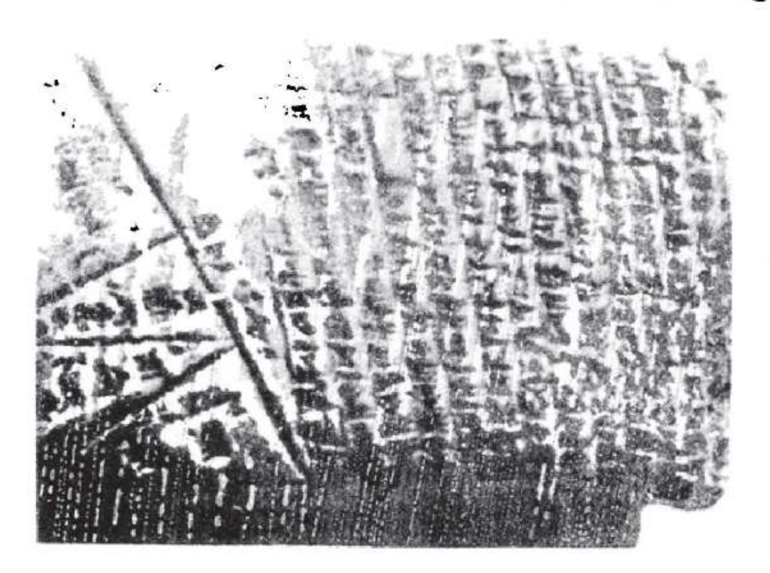
أما علوم الحيوان والنبات والمعادن، فتدخل ضمن علوم الحياة، أي العلوم الطبيعية. وكان الدارسون يعرفون أسماء مختلف الحيوانات والنباتات والأحجار. وقد برعوا في معرفة الأجهزة الداخلية لجسم الحيوان بشكل دقيق، وكذلك الأمر بالنسبة لعلم النبات. وعن الأحجار عرفوا الأنواع التي يمكن الاستفادة منها لأغراض عديدة.

وكانت الكيمياء معروفة بدرجة ضعيفة. وكانوا يضعون وصفات جاهزة لصنع أنواع العطور ومساحيق التجميل والزجاج والأحجار الكريمة الاصطناعية وخلط المعادن.

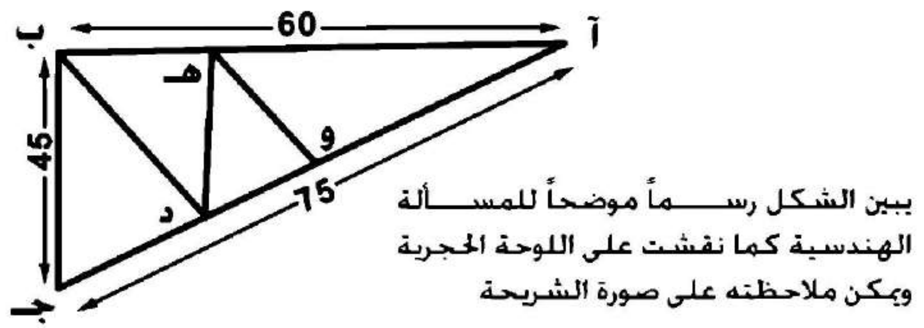
وأما الطب فكان أكثر العلوم التصاقاً بالسحر. والطبيب والساحر يلتقيان دوماً عند سرير المريض. وكان الأطباء يستمدون علمهم من إلهة الحكمة "أيا" وإلهة الشفاء "جولا" التي تستطيع حتى إحياء الموتى. وكانت الحيّتان الملتفتان اللتان ما زالتا رمزاً لمهنة الطب حتى يومنا هذا، ترمزان إلى إله الشفاء "نينكيشزيدا" عند العراقيين القدماء.

وبالتأكيد كان الأطباء يقومون ببعض الأعمال الجراحية كجراحة العيون والكسور. وكانت قوانين حمورابي قد وضعت عقوبات صارمة على الجراحين الذين لا يوفقون في معالجة مرضاهم تصل إلى الإعدام. كما وضعت عقوبات إعدام على الذين يتعاطون السحر والشعوذة.

وكانت الرياضيات فرعاً من فروع المعرفة قطع فيها السومريون أشواطاً ملحوظة، ثم طورها أقوام الجزيرة العربية بشكل أكبر. وكانت الرياضيات تطبق في الحياة اليومية في القياس ومسح الأراضي والقنوات وتعداد كمية الإنتاج والديون والفائض.



رقيم رياضي هندسي
تل حرمل ـ بغداد



يبين الشكل رسماً موضحاً للمسألة الهندسية كما نقشت على اللوحة الحجرية ويمكن ملاحظته على صورة الشريحة

وثمة أرشيف رسمي خاص للوثائق السياسية المهمة: كالمعاهدات وواجبات موفدي الملك إلى البلدان الأخرى. وكان بعض الملوك، ومنهم نبوخذنصر، يهتمون بماضي البلاد وتاريخه، فيقومون بجمع الألواح كافة المتعلقة بذلك. ومن الملوك الآشوريين العاهل الفنان آشور بانيبال الذي أرسى دعائم مكتبة نينوى التي تعتبر أول مكتبة في تاريخ البشرية، حيث تحتوي هذه المكتبة الرسمية الضخمة على مجاميع هائلة من النصوص السياسية والأدبية والدينية؛ وقد احتوت على ما لا يقل عن 2500 لوح طيني مرتب ومؤرشف بانتظام يمثل قمة الوعي الثقافي وحرص السلطة على انتقاء النصوص بما يتفق مع توجهها الحضاري.

وقد بلغ الأدب في بلاد الرافدين شأناً كبيراً. وكان يصور بأسلوب حاذق بارع نظرة الشعب العراقي الخالد الذي سكن بلاده منذ أقدم العصور على ضفاف دجلة والفرات إزاء الكون والمجتمع. وترجع أصول وأوليات معظم الميثولوجيا والملاحم إلى العهود السومرية التي نقلت شفوياً في البداية عبر الأجيال والقرون.

ومن الصعوبة بمكان تحديد معالم الأدبين السومري والبابلي، ووضع الحدود بينهما، إذ إنهما قد تداخلا وأكملا بعضهما إلى حد بعيد. ومن الأعمال القصيصة المبدعة التي تحدث التاريخ الإبداعي عنها، تلك التي تبحث نشوء الأرض والسماء والناس. وكان الإله الحكيم "انكي" عند السومريين، و "أيا" عند البابليين قد أدى دوراً كبيراً في ذلك.

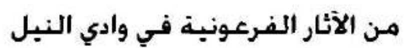
ومن أهم الأعمال الإبداعية (نشيد خلق العالم) الذي كتب في الألف الثاني ق.م، والذي بقي مأثرة تاريخية وسمفونية خالدة تشدو قصة الخليقة طوال العهود البابلية. وقد لاقى هذا النشيد صدى واسع النطاق، حيث كان يردد في بهاء آشور، ويقوم الإله آشور مقام مردوخ. وتعتبر ملحمة جلجامش عملاً عظيماً يجسد برؤاه الإبداعية قصة الإنسان واقتحامه لمواقع الصعاب وتطلعه نحو الخلود الأزلي.

الوحدة الحضارية

أدت المعلومات المستقاة من التراث الكتابي القديم بفضل مكتبة نينوى وجملة الأرشيفات السومرية، وبفضل الراهب بيروز الذي سجل بناء على طلب الملك اليوناني السلوقي أنطوخيوسا الأول التواريخ السنوية الملكية في القرن الثالث قبل الميلاد، إلى اكتشاف العديد من الوثائق التي تؤكد وحدة الحضارة القومية وأزليتها؛ وتؤكد الترابط الوثيق بين الممالك القديمة في سومر وبابل ونينوى وآرام وكنعان ومصر.

ونلاحظ إلى أي مدى كان تاريخ بلاد الرافدين وبلاد مصر متطابقاً، وإلى أي درجة تكون طيبة وبابل قطبي عالم ملتحم. لقد تشكلت حضارات تنتسب إلى جذور عربية واحدة، وتشكلت مواقعها وصروحها على أراضٍ سهلية متشكلة من الطمي حول أنهار قوية كدجلة والفرات والنيل. وفي هذه أو تلك من الأقطار الشمالية أو الجنوبية لبلدين انتهاء بالاتحاد في دولة واحدة، وفي تجزئة مصر القديمة إلى مصر السفلى ومصر العليا المرموز لها بالشارة الفرعونية ذات الرمز المزدوج. ولقد تطابق شمال وادي الرافدين أو نينوى وجنوبي وادي الرافدين المسمى سومر وبابل، علاوة على القرابة الصوتية الأكيدة بين سورية وآشور الذي لا يمكن أن يكون التعبير الثاني إلا الأول مسبوغاً بأداة التعريف.

لقد كانت نينوى عاصمة الآشوريين، وبابل عاصمة الكلدانيين، حيث حكمت كل واحدة منهما بدورها شعوباً مزودة بتشريع قانوني، وعادات وأعراف وثقافة متحدة ذاتياً؛ فاحتفظت أرض بابل الواطئة إلى جانب بعض التباين بميزة مقدسة، واتضحت أراضي بلاد نينوى العالية.



من الآثار الفرعونية في وادي النيل

كان العالم القديم مقسماً إلى نصفي دائرة فكرية ناضجة، نصفي دائرة يندمجان على خط الطول ذي الأربعين درجة، والمتخذ نقطة تقسيم على اليسار الإمبراطورية المصرية وعلى اليمين الإمبراطورية الآشورية البابلية متحدين بإمبراطورية الحثيين التي لا تدوم طويلاً. وسيكون إصلاح الأراضي متعادلاً تقريباً، وكذلك الجموع الإنسانية من هذا الجانب أو من ذاك، فهناك منهما ثقل العصور، فإذا ما استيقظت مصر نحو منتصف الألف الأول ق.م، أكدت لنا الحفريات الأثرية المباشرة بها أو في الوركاء بأن نرى بدقة في الألف الرابع ق.م ما احتوته من حضارة أزلية.

إن التاريخ العربي المجيد تظهر فيه الإمبراطورية الكلدانية مع سرجون الأكادي في القرن السادس والعشرين ق.م، والملك السادس لسلالة بابل الأولى حمورابي في القرن التاسع عشر ق.م، ولكنه مع إمبراطورية نينوى الأولى بعد وقت قليل من غزوة توتموريس الثالث في جرابلس (كركميش)، تلك الغزوة التي تؤكد الصلات القومية مع مصر. وتبرز سياسة وادي الرافدين التي كانت مشغولة بالمتمردين في عيلام، لكن من الواضح أن مجرى نهر الفرات (بوراتو) هو الذي سيعطي آفاق سياسة وادي الرافدين كاتجاه واستمرار.

وإن التوجه لبلوغ البحر وإقامة صلات مع الفينيقيين الفلسطينيين واليونانيين لتطوير العلاقات الاقتصادية بين الخليج العربي والبحر الأحمر الأبيض المتوسط، هما عاملان لا يستطاع امتلاك أقوى منهما. وكان ينبغي إزاء ذلك امتلاك ممر يعبر حوض جرابلس، وتأكيد الحياد المتعاطف لدويلات المدن السورية القديمة.

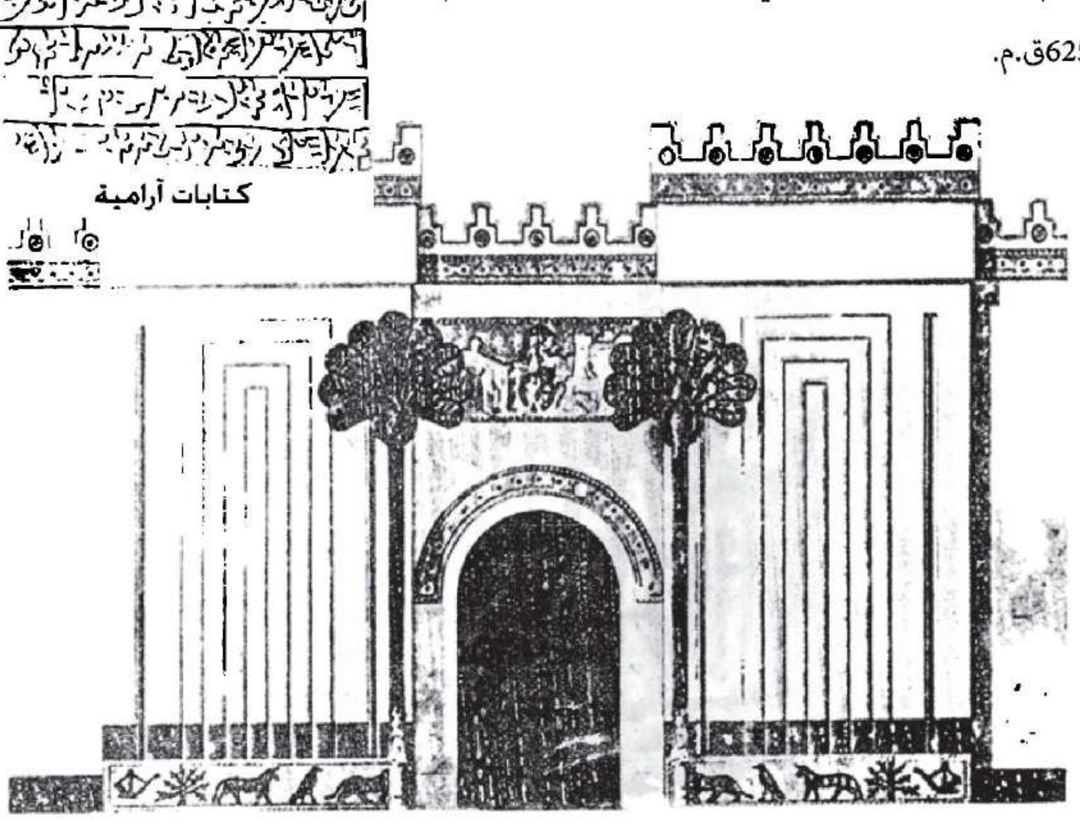
فما دامت مصر القديمة متأكدة من تأمين طرق المواصلات وحراستها، يقوم ملوك العراق القديم معها بمسك زمام اتحاد مفيد ينضم إليه الحثيون. ولكن ما إن يغيب السلام من نقاط الالتقاط هذه بعد هجرات أو انتقاضات، حتى يأخذ الآشوريون طريق كركميش وقادش وصيدا، كما كان يفعل مثلهم توتموزيس الثالث أو رمسيس الثاني.

لقد تجلى اللقاء الوحدوي العربي في التاريخ القديم في نحو الألف الأول ق.م، حيث برز تمركز جغرافي وسياسي وعسكري واضح وناضج، وحصلت وحدة

اندماجية وفق قاعدة لا تتغير مع الحقب التاريخية، ذلك لأن التاريخ يؤكد أزلية الوجود العربي. ومن قبل قال أفلاطون: "إن الزمن هو صورة متحركة لا ريب ثابتة، وهذا الحديث ينطبق على واقع العرب في الماضي والحاضر والمستقبل، لأن تسمية السامية ما هي إلا خدعة كبرى ضد الأقوام الأكادية والمصرية والآشورية والعمورية والكنعانية والآرامية التي تنتمي إلى أمة عربية واحدة، ووجود قومي أزلي منذ أقدم العصور".

إن مصر وبلاد الرافدين كانتا وستبقيان قوتين استراتيجيين في مسألة التوازن، وهذا ما تجلى في تاريخ الشرق الأدنى السياسي والاقتصادي. وتتوافق الحروب الآشورية مع فترة حكم الإمبراطورية الثانية التي امتدت منذ سنة 200ق.م إلى 625ق.م.

كتابات آرامية



نينوى

وقد انتهت هذه الغزوات بالوصول إلى العمق المصري في ثلاث موجات في سنوات 671-666-664ق.م من دون أن تأخذ هذه الغزوات مظهر الفتوحات كما حصل في عهد الملك الآشوري آشور بانيبال في سنة 660ق.م.



بوابة النصر ـ تدمر

لقد كانت إمبراطورية نينوى آنذاك في ذروة مجدها، وكانت مدن النمرود (كالح) وقصر دور شروكين (خورسباد) الرائع رمزاً لقصر سنحاريب في مدينة نينوى. وقد جمع العاهل الفنان آشور بانيبال أعداداً هائلة من المخطوطات والكتب المثبتة على شكل ألواح ورقم من الطين المشوي في مكتبة نينوى التي تمثل قدراً عالياً من الرقي الفكري والحضاري.

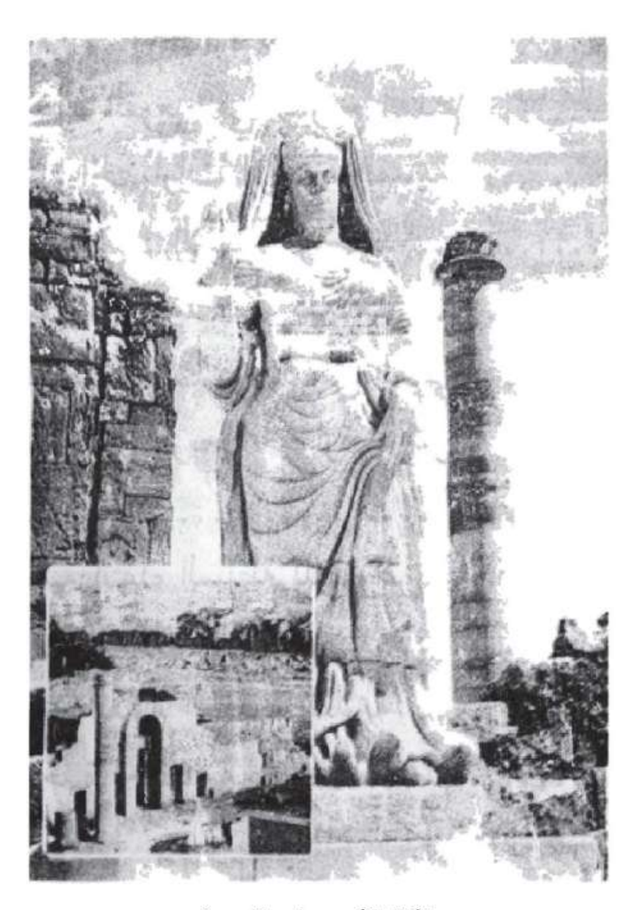


مدرج مسرح تدمر

إن اسمي سرجون الثاني (شروكين) الذي يعتبر واحداً من رموز التاريخ السياسي القديم، وأسرحدون، يشخصان هذه الفترة اللامعة، لا سيما أنه سجل في كتابيات حثية أن الملك الآشوري سنحاريب كان يدعى رسمياً "سيد الأشوريين والعرب".

أما الإمبراطورية البابلية الكلدانية الثانية، التي ورثت نحو 625-523ق.م قوة نينوى، فقد أعادت صلة التواصل مع الإمبراطورية البابلية الأولى (العهد البابلي القديم)، وتلألأت مع اسم نبوخذ نصر الثاني الذي وصل إلى مصر أيضاً وإلى دويلات المدن الكنعانية والفلسطينية. ولقد أصبحت بابل في عهده درة مدن الشرق العربي القديم، إلى أن جاء قورش الأخميني مؤسس الأسرة الأخمينية الفارسية في موجة عدوانية لاحتلال العراق.

لقد سقطت بابل العراقية وممفيس المصرية في آن واحد تحت حكم قورش الفارس وابنه قمبيز. وقام اليهود الذين كتبوا التوراة في بابل بعد التحرير البابلي لفلسطين في التاريخ القديم، بالتحالف مع الفرس لقاء قيام قورش بإرجاعهم إلى ما يسمى بأرض الميعاد، وإعادة بناء هيكل سليمان المزعوم. وهذا ما يؤكد التحالف المعادي لشعب عربي واحد يمتلك من المقومات الحضارية ما هو كفيل بتأكيد شخصيته القومية المميزة عبر أدوار التاريخ.



مملكة الحضر في الموصل

العصر الروماني والفرثي

المحتويات

من منشورات دار علاء الدين

- أسرار الآلهة والديانات
ا. س. ميغوليفسكي
- هرم ستونهيتج الافتراضي
ا. فزينوفيف ا. ا. زينوفيف
- تاريخ اليابان من الجذور حتى هيروشيما
أدوين اولدفاذر ريشاور
- رموز ومعجزات
ارنست دوبلهوفر
- اليوم الآخر ونهاية الزمان
د. خالد صنادبقي
- الإله والإنسان وأسرار جنائن بابل
د. ماجد عبد الله الشمس
- الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم
د. ماجد عبد الله الشمس
- في أصل العرب ومواطنهم
د. ماجد عبد الله الشمس
- أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة
س. بريوشينكين
- الأسطورة في بلاد الرافدين الخلق والتكوين
عبد الحميد محمد
- أسرار بابل
فـ ا. بليافسكي
- الحضارات القديمة ١-٢
فـ دياكوف - س. كوفاليف
- آرام دمشق وإسرائيل
فراس السواح
- جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة
فراس السواح
- دين الإنسان
فراس السواح
- مدخل إلى نصوص الشرق القديم
فراس السواح
- مغامرة العقل الأولى
فراس السواح
- موسوعة تاريخ الأديان ١-٥
فراس السواح
- الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى
فضل عبد الله الجثام
- اكتشاف خازاريا
ليف غوميليوف
- الانثولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية
محمد الخطيب
- الحضارة الفينيقية
محمد الخطيب
- تاريخ الحضارة العربية
محمد الخطيب
- حضارة اوروبا في العصور الوسطى
محمد الخطيب
- مصر ايام الفراعنة
محمد الخطيب
- هل هبط آدم في القفقاس
محمد عمر بغداي
- أب هو إبليس
محمود الكبرا
- صرح ومهد الحضارة السورية
مفيد عرنوق
- الديانة الزرادشتية مزديسنا
نوري إسماعيل
- الديانة الفرعونية
واليس بدج



بدايات الحضارة

ألف باء التمدن الإنساني يبدأ في بلاد العرب وأن الأمر مسألة تواصل النور الحضاري الذي لا انقطاع فيه حيث انبثق وتركز في عدة مواقع عبر العصور استمراراً للقوة... استمراراً للفكر... استمراراً للإقتصاد.

ومهما يكن من أمر فإن التغييرات التي حملتها الحقب كانت طفيفة إلى حد أنها تبين لنا كم كان التاريخ في حكمته وكياسته متناقضاً مع سرعة الأفراد وجملة التحديات.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy